الفصل الثاني

# أصول وقواعد في التبليغ

١. علاقة العلم والإرشاد

٢. الحقائق الإسلامية ومعرفة الفترة المعاصرة

٣. علاقة القرآن بالقلب

٤. استعمال الوسائل المشروعة

٥. الأجرة وطلبها

٦. معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم

٧. نظرة إلى علاقة الإيمان –التبليغ– العمل

٨. الصفاء والإخلاص

٩. موازين في العلاقات برجال الدولة والأغنياء

١٠. المثابرة

١١. اقتضاء البصيرة وعدم مصادمة قوانين الفطرة

لكل علم تعريفه الخاص به، ولكل عمل فنّه وتقنيته الخاصة به، ومن دون هذا التعريف وهذه التقنية لا يمكن الخوض في أي فرع من فروع العلم ولا أية جهة من جهات العمل. ولما كان التبليغ أقدس عمل للمسلم فلا شك أن له أصولاً وفنوناً خاصة به. وأي تبليغ لا يراعى فيه هذه الأمور لا يجدي نفعاً سوى بذل جهد لا طائل من ورائه. أما ما يحرز من نجاح وقتي فهو إخفاق ضمني، لأنه بلا غد.

سنورد بعض فنون التبليغ وتقنياته على صورة مواد، ولكن نسبق ذلك بالقول: بأن أصول التبليغ والإرشاد وفنونه لا تنحصر على ما نذكره، علماً أن ما نحاول أن نقدمه من أصول وقواعد قد اتخذ فيه جانب التطبيق العملي أساساً وأعدّ في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ممَّن خبرها في الواقع العملي، فجالس رجالات الإرشاد والتبليغ منذ عهد الصبا، حتى تقلدِه وظيفة الدعوة والتبليغ رسميا.

هذا وقد لا تتوافق بعض تعابيرنا مع عالم الحقيقة والواقع، وتلك هي من نقصنا وقصورنا.

ودستورنا في هذا الصدد: أن الأفكار التي تسري في مفاصل الحياة المعيشة هي التي تستحق الحياة.

## ١ – العلاقة بين العلم والإرشاد

لا بد أن يكون كل من يتولى مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجهزاً بالعلم. ذلك لأن العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة. فعلى الداعية أن ينشئ نفسه جيداً بحقائق دينه الذي يريد تبليغه للآخرين، وإلاّ يكون سبباً

لإخفاقات كثيرة، بل قد ينفّر مخاطبيه عنه وعن دينه. وما هذه النتيجة إلاّ تجاوز على الحقوق الدينية والدنيوية له ولغيره.

سنذكر في هذا الفصل نظرتنا للعلم عامة، ثم نسعى لبسط علاقة الإرشاد والعلم والعمل.

العلم في عالم الوجود كله محراب سيدنا آدم، وهو يتجسم ليصبح سفينة سيدنا نوح، ويصبح سيدنا نوح في السفينة، وهو في سيدنا إبراهيم وديان جارية بمسيل الوحي الإلهي، وهو يتجسم ليصبح الطور في سيدنا موسى، أو يصبح سيدنا موسى في الطور.. لذا فما يُرى في الكائنات قالب واللب هو العلم.

ما العلم؟ العلم هو معرفة الإنسان لربه بعد معرفة نفسه، أو رؤية الإنسان لربه بجعل نفسه مرصاداً لمشاهدة "الصفات" و"الأسماء" الإلهية، بما يكتشفه في مشاعره، وسعيه للوصول إلى معرفة ربه والعلم به. فهذا هو العلم الحقيقي، كما عبّر عنه الشاعر يونس أمرة ضارباً في صميم العلم:

العلم هو أن تعرف،
أن تعرف نفسك،
فإن لم تعرفها،
فالعفاء على ما قرأت...

أما قولهم: "من عَرف نفسَه فقد عرف ربَّه" فهو كلام بليغ ذو مغزى دقيق يكاد يكون حديثاً نبوياً، وهو ليس بحديث شريف بل دستور رصين قيّم من حيث المغزى والمعنى، والقرآن الكريم يسند هذا الدستور بالآية الكريمة ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(الحشر:١٩).

نعم إذا نسيتم الله، يُنسيكم أنفسكم وذاتكم. وإذا ما نسيتم أنفسكم تبتعدون عن الله. وعنده تغفلون وتصبحون غرباء عن أنفسكم فتنسونها. وهكذا تتكون حلقة مفرغة تولد إحداها الأخرى وتغذيها، ومن يدخل في هذه الدائرة الفاسدة من الصعوبة بمكان أن ينجو، بل ينقلب على عقبيه،

ويذهب هدرا. ويمكن أن نفهم من الآيـــة الكريمة معنى آخر وهـــو:

احذروا أن تنسوا الله، فينسيكم أنفسَكم، وعنده تنشغلون بالخارج فحسب، فتتحول أنظاركم إلى الآفاق وحدها، فلا توجهون مجال تفكركم ومحاسبتكم إلى أنفسكم. فتجد من يتكلم عن الإسلام، وعن القرآن ولكنه ينتظر تطبيق أحكامه من الآخرين، وربما يهمل أقرب الأقربين إليه أحكام الإسلام ويحقرها جهاراً وفي بيته، وهو لا يراهم حيث كثف نظره إلى الآخرين منتظراً منهم ما يريد. وكم هو حزين أن يطلق الإنسان الهتافات المطالبة بالإسلام والجولات في الأزقة والشوارع، متتبعاً خطوات الشياطين، ناسياً نفسه من دون أن يأخذها بالمحاسبة الدقيقة. ولا يتحرى يومياً مرات ومرات مدى علاقته مع ربه الجليل.

نعم، نحن كمن يتسلق ذرى الجبال، علينا أن نحسب حساباً دقيقاً أين سنضع أقدامنا وأين سنضرب الكلاّب (الخطّاف) ونربط الحبل، لأن أي خطأ نرتكبه -ولو كان تافهاً- يودى بحياتنا.

نعم! أليس عجباً أن ينسى الإنسان نفسه في المعبد والمسجد بل حتى في الكعبة والروضة المطهرة.. وأعترف متألماً أن عدد هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في هذه الأماكن لا يحصى. فيا رب ما أعظم هذه الخسارة!

للعلم غاية، وهي أنه ينتج المعرفة الإلهية والمحبة الإلهية. إذ العلم الذي لا يضرم محبة الله في قلب الإنسان ولا يلهب ذوقه الروحاني -وهو ضمان نعيم الجنة- لا يعدّ علماً بلغ غايته. لأن العلم الذي بلغ الغاية وحققها هو منبع حياة لطائفنا، والشريان الدافق لمشاعرنا، وبدونه موت معنوي. فالعلم الذي يثني عليه ويحث عليه القرآن الكريم والحديث الشريف هو هذا العلم وليس غيره. بل هذا هو العلم.

وقد خضنا هذا الموضوع مع أنه ليس موضوعنا الأساس، إلاّ أنني أحب أن أتناول بعضاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تخص العلم:

أ- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:١٤٦)

أي هل العلم الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الله تعالى سواء مع الذي يسجن الإنسان في المختبر؟ وهل يستوي العلم الذي يوصل من يراقب النجوم أمام التلسكوب ناوياً أن يصعد بمدارج من نور إلى الله والعلم الذي يسمّر نظره في النجوم وأنظمتها؟. وبتعبير أوضح هل يستوي هذان اللذان يملك كل منهما زاوية نظر مختلفة عن الأخرى؟

إن مَن يجول في بطون الكتب كالفأر متتبعاً خزينة الأسرار يصرف جلّ عمره في كتابة الحواشي والشروح من دون أن يقرأ سطراً واحداً من علم الحقيقة، هذا الذي يطلق عليه اسم العالم، هو بالتعبير القرآني كمن يحمل أسفاراً. أين هذا من الإنسان الكامل الذي يقرأ سطراً وإذا به يحلّق في السماوات ويعيش في كل آن في نشوة وانتشاء روحي. أظن أن الفرق بينهما كالفرق بين "لا شيء" و"كل شيء". فالعلم الموصل إلى الله "كل شيء" والذي يتركك في الطريق "لا شيء".

ب- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨).

واضح جداً الإشادة بالعلم والثناء على العلماء في هذه الآية الكريمة. ولكن الثناء يكون في موصوفه، أي في الإنسان الواقف في خشوع بعلمه تجاه ربه. ولكل علم ثقله وأهميته. والرسول ﷺ يقول: "إنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء".(١)

نعم! لئن كانت هناك زمرة من البشر يرون الحقيقة على نصاعتها دون غبش، فهم الأنبياء عليهم السلام. أما نحن فنستطيع أن ننفذ إلى الحقيقة بوساطة النور الذي يشعّه كلامهم. حيث لا يمكن لإنسان كائناً مَن كان أن يجد الحقيقة المطلقة من دون أن يدخل تحت رعاية نبيّ من الأنبياء. وربما يكشف عن بعض الحقائق القريبة من الصواب بجهوده وسعيه، أما الصواب

(١) البخاري، العلم ١٠؛ الترمذي، العلم ١٩.

المطلق فلا يمكنه الكشف عنه إلاّ بدلالة الأنبياء عليهم السلام. ولهذا فالأنبياء هم الوارثون الحقيقيون لله، ومن بعدهم العباد الصالحون. والقرآن الكريم يشير إلى عباد الله الصالحين الذين يرثون الأرض. و تلك العلاقة بين الحديث المذكور وهذه الآية جلية وواضحة إذ تعني: أن عباد الله الصالحين هم الذين يستحقون أن يكونوا خلفاء الأرض، وهم الوارثون للأنبياء وليس غيرهم؛ ذلك لأن النبي ترجمان الصواب، وبمقدار تحقق أيّ إنسان ليكون مترجماً للصواب يكون وارثاً حقاً للأنبياء.

ولأجل بيان فضل العالم على الآخرين أُوردُ من الرسول ﷺ هذا القياس، إذ يقول: "فَضْلُ العالِمِ عَلَى العابِدِ كَفَضْلِي على أدناكم".(١)

نعم إن العابد الجاهل معرّض للانحراف والزيغ كل حين. وهذا الانحراف نسبي حسب مرتبة العبد عند الله. فمنهم من يعدّ عدم مراقبته لله في آن واحد انحرافاً جاداً.. ورغم نسبية المسألة فهناك انحراف. والحال أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في مراقبة دائمة ومحاسبة مستمرة مع أنفسهم. فهم في توق روحي دائم، وعلى أهبة الاستعداد تجاه المهالك والمخاطر المحدقة. ومما لا شك فيه أن العالم الذي يتعبد عن معرفة وبشعور تام بكل مسألة، أفضل ممن يتعبد بلا شعور، كفضل الرسول ﷺ على أدنى الصحابة الكرام. والحقيقة أن هذا يعني: أنه لا يمكن مقايستهما.

وهناك نكتة دقيقة في هذه المسألة، وهي أن الإنسان الكامل الوارث للنبي ﷺ لا يفلت منه نور يُفاض عليه من الفيض الأقدس. حتى كأنه مركز استقطاب كبير لابتلاع الأشعة المنبعثة من الشمس. فلا يهدر ولو ذرّة من كل فيض مقدس يفيض عليه بتجليات الأحدية، وينتقل إليه بتجليات جمالية لطيفة تلاطفه بإسباغ الرحمة عليه، فتكون جميع أركان قلبه في نشاط مستديم وفعالية دائمة، ساعياً ليكون مرآة عاكسة لهذه الفيوضات.

---

(١) الترمذى، العلم ١٩.

هـــذا -في الوقت نفسه- تعبير عن خشوعه العظيم وتوقيره الكامل لربه الجليل، وهو عملية شحن روحي مستمر. ولهذا الشخص المشحون باستمرار له إفراغ أيضاً، وهذا الإفراغ هو نشر ما في روحه من ضياء ونور وحقائق أخرى إلى مَن حوله. وليس هناك معيار لقياس عمله هذا حسب أعماق روحيته. إذاً فمهما توغل العابد في عبادته لا يبلغ درجة عبادة عالم مؤهل لأن يكون إنسانا كاملا. فضلاً عن أن المرء عليه أن يعمل بما عَلم. وإلاّ فالقرآن الكريم يهدده ويزجره بالآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعلَمُونَ﴾(البقرة:١٤٦).

نعم، إنهم يعلمون ولكن لا يعملون، فهم كالثقوب السوداء لا تعكس نوراً إلى شيء. فلا يستفاد بشيء من طاقاتهم الضوئية، أو بتعبير أصح لا يكون كالشمس تشع ضياءها إلى كل مكان، فهي موقد وهي سراج وهي حزمة ألوان تلامس أزاهيرها، من الكواكب السيارة. ولنترك محرومي الحظ الذين ضياؤهم كالثقب الأســـود مظلماً قاتماً، مع ما لديهم من طاقات مدخرة. نتركهم وحالهم منتقلين إلى حديث شريف للرسول الأكرم ﷺ؛ إذ يقول: "مَن سُئل عن علمٍ عَلِمَهُ ثم كَتَمَه أُلْجِم يوم الْقيامة بلجَامٍ من نار".(١)

فهذا الكلام الطيب بيّن المعنى، أي مَن تعلم شيئاً ولم يحاول نشره إلى مَن حوله، أي لم يفرغ بعد ما شُحن، ولم يصبح قدوة حسنة بأطوراه، فلا يكون مرآة عاكسة للحق. ويكون جزاؤه أن يلجم بلجام من نار. ونجد في الحديث الشريف تقريعاً وتوبيخاً شديدين؛ حيث إن اللجام لا يستعمل إلاّ للحيوانات. أي تشبيه مَن كتم علمه بالحيوانات، وهو تعبير شديد كما هو واضح.

إن ذلك الإنسان -الذي كتم الحق- لم يدرك قيمة ما أهّله الله وجعله في أحسن تقويم، وأهمل ما أودع الله في ماهيته من شعور وبيان وتفكر حتى ميّزه عن الحيوانات، بل جعله خلقاً ممتازاً مختاراً من بين المخلوقات، ولكنه لم

(١) الترمذي، العلم ٤٣؛ أبو داود، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة ٢٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١٦٣/١.

يؤد شكر ما أودع الله فيه. أليست معاملة عادلة عدالة محضة أن ينـــزع رب العالمين أفضاله عنه.. الأمر أعرضه لأنظاركم.

العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة، أما العمل فهو شرط لا ينفك عنهما. فلا يفرز هذه الثلاثة بعضها عن بعض؛ إن عمل المرء بما علم تعبير عن توقيره لعلمه، إذ عدم القيام بالعبودية لمن عرف ربه هو عدم توقيره وعدم اكتراث، بل بلاهة وعمى وصمم. ولاسيما من تولى عناء خدمة الإيمان وتكاسل عن العبودية فهذا أمر مخيف أكثر من مخافة العدو الخارجي. والحالة التي يتقمص بها الغربيون حينما يرون غير الملتزمين من المسلمين، وما يتفوهون به له دلالة لهذا الحكم، إذ الكلام أو الشهادة من الخصم له دلالة خاصة.

يسأل أحدهم إنكليزيا مسلماً، لماذا لا يدخل الإنكليز في الإسلام أفواجاً، فهم أناس عقلاء حتى إنهم يديرون سياسة العالم؟ فلا يجيبه الإنكليزي المسلم وإنما يمسك بيد السائل ويأخذه إلى أقرب مسجد.. وضع كئيب، ليس هناك إلاّ عدد ممن يؤدون العبادة بأجسادهم.. وكان هذا جوابه. وهذا يعني: أن طور الغربي واضح تجاه النظم الدينية، أو غير الدينية، إن لم تظهر في التطبيق العملي وإن لم تترجم إلى واقع عمليّ. فمتى ما أصبحنا نقابلهم كجماعة توحد فيها الظاهر والباطن، وتكامل فيهم العقل والروح، وغدت قلوبهم متعارفة مفتوحة للقرآن الكريم، وانسجمت أعمالهم مع فطرة الإنسان، وهمّ كل منهم متوجه إلى هداية الإنسانية.. فانهم يلجأون إلى الإسلام. وقد لجأوا إليه، وسيلجأون بإذن الله من دون أن نكلفهم به.

نعم، إن مجتمعا لا يعرف دينه، ولا يعرف ربه، ولا يفهم عن كتابه، وليس له من المظاهر ما يجلبه اليه كيف يلتحق به الغربي؟ فهو ينظر أول ما ينظر إلى الواقع العملي والى بناء قلب المسلم وعقله. إذ يهتم بأناس تتماوج في آهاتهم الحسرات حباً للإنسانية وإشفاقاً عليها، يقضون لياليهم بالتهجد

والقيام لله، وألسنتهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت ما استطاعوا، بل يشغل كل منهم كل آن من وقته بما يفيد وينفع.. نعم إنهم يهتمون بأناس مشحونين بمثل هذه الطاقات.

فإذا ما تمكن الذين يمثلون الإسلام أن يصبحوا على هذه الشاكلة فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلونه أفواجاً. ولكن لان الحالة معكوسة، تجلت النتيجة معكوسة أيضاً، فابتعدوا عنا حالياً.

وباختصار نقول: إن الإسلام نظام إلهيّ يربط العلم بالعمل ربطاً محكماً. ففي إحدى جانبيه الإيمان، والجانب الآخر تحويل هذا الإيمان إلى عمل وفعالية. نعم، إن ذكر أعمالِ وعباداتِ الآخرين وروايةَ حكايات عنهم جميل من جهة لما فيها من عبر وعظات. ولكن الاكتفاء بهذا القدر فقط من دون القيام بتطبيق تلك الأعمال في الواقع يؤثر تأثيراً سلبياً في المقابل. فالإسلام ليس ذكر مناقب الأولياء أو الاستماع إليها فحسب، بل هو تحويل ما يُذكر عنهم إلى حياة معيشة. نعم، الإسلام إيمان وعمل. فالذين يتكلمون عن العمل الإسلامي من دون أن يدركوا أن الإسلام إيمان وعمل كلامهم هذر ليس إلاّ.

## ٢- الحقائق الإسلامية ومعرفة الواقع المعاصر

لقد تبدل تقويم الأشياء والنظر إلى الحوادث في وقتنا الحاضر تبدلاً كلياً، فالمنطق والعقلانية في مقدمة الأمور، وقد حازتا أهمية كبرى في التقويم، حيث إن الكفر والإلحاد يتكلمان باسم العلم والفلسفة. ومن هنا يضطر المسلم إلى مقابلتهم بالأسلوب نفسها، وهذا وثيق الصلة بمعرفة ثقافة عصره، وما العلم والعرفان اللذان لا ينفكان عن المسلم إلاّ هذا الأمر.

إن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثاً يحاول أن يبلّغ شيئاً عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث

ستفقده التأثير إن عاجلاً أو آجلاً. ومن هنا فعلى المؤمن أن يفهّم ويبلّغ ما ينبغي أن يُفهّم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي والثقافي لعصره، ولعلي أجزم أن مرشداً وداعية -في يومنا هذا- إذا ما تمكن من تطبيق هذه النقطة المذكورة يسبق الأولياء والأقطاب في الآخرة، إذ يقف خلف الأنبياء عليهم السلام. نعم إن هذه النقطة سامية وجليلة إلى هذا الحد. علماً أن التمسك بها وتنفيذها صعب أيضاً مثلما أنها ضرورية جداً.

إن من لا يعرف عصره لا يختلف عمن يعيش تحت الارض، بينما المبلّغ أو الداعية يجوب في الفضاءات. وعندما يجول بين النجوم بعقله، يعاين بقلبه وبلطائفه الأخرى رياض الجنان، أي عندما يحجزه عقله في المختبر جنب (باستور)، ويسيّره برفقة (انشتاين) في أعماق الوجود، تراه واقفاً بروحه بكل إجلال وتوقير أمام الله سبحانه وأمام رسوله الكريم ﷺ، فينصبغ بصبغة الله مرات ومرات في اليوم الواحد.. وأعتقد أن المرشد الحقيقي هو هذا. تأملوا في كلام النبي ﷺ، لماذا لقي قبولاً وتأثيراً لدى مخاطبيه؟ لأنه تعامل مع عصره بمثل ما يتعاملون به بينهم. ولا شك أن جميع الأوامر الآتية من الرب الجليل لا تخالف الحوادث الجارية في الكائنات، ويكفي للإنسان أن يدرك حكمة الوجود وروحه، فينسّق ما يريد أن يبلّغه وفق ذلك.

وكذا الأمر لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أخذوا ظروف واقعهم ومستوى مخاطبيهم بنظر الاعتبار لدى تبليغهم ودعوتهم، وذلك ما تعلّموه من الرسول الكريم ﷺ،ولذا سَمَوا إلى مستوى رفيع في قوة التأثير مما جعل الدنيا تحثو أمامهم في أقصر وقت. وكذلك فعل جميع العظماء الذين أتوا بعدهم من الوارثين الحقيقيين للرسول الكريم ﷺ، سلكوا الأسلوب نفسه في التبليغ وإن تخالفت مسالكهم، حيث أدركوا مدارك عصرهم، فدام تأثيرهم إلى يومنا هذا، كالإمام الغزالي والإمام الرباني ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالهم من الدعاة الأثبات.

ولكن لما آل الأمر إلينا.. فأسفاً.. أدرنا ظهرنا إلى العلم، كوارثين غير صالحين لأولئك الأبرار. حيث دمّرنا ما يجعل المسلم مسلماً حقاً من آداب وأركان. فنحن ضحايا جهلنا.

## ٣- علاقة القرآن بالقلب

لابد أن ينظم المبلّغ قلبه وضميره وفق القرآن الكريم ويجعله متناغماً معه. ويعبّر القرآن الكريم عن هذا بالآية الكريمة الآتية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

نعم، إن القرآن الكريم كتاب وعظ وإرشاد وذكر وتذكير، ولكن الشرط الأساس للاستفادة من القرآن من هذه الجهة هو انفتاح القلوب نحوه. ولأجل ذلك على القارئ أن يسدد نظره ويلقى سمعه نحو القرآن. وأن يتوجه إلى القرآن الكريم بكيانه كله، إذ من المحال الاستفادة من القرآن على الوجه المطلوب باتباع سبيل آخر. حيث إن من لا ينظم أطواره وفق هذا النسق لا يستطيع أن يرى الجهة المعجزة المنورة للقرآن، فلا يميز كلام الله عن كلام إنسان ما. ومن هبط إلى هذا الدرك لا يرجى منه أن يؤدي عملاً ما باسم القرآن، لأن القرآن يعقب بعد قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. أي إنه كلام رب العالمين، لا ريب فيه، ولكن لا يستفيد منه على الوجه المطلوب إلاّ المتقون. والمتقون هم أفضل الناس معرفة بالشريعة الفطرية؛ فكما لا يكون المهمل متقياً، لا يستفيد من القرآن أيضاً، حيث إن قلبه قد مات، والآية الكريمة تبين ذلك: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾(محمد:٢٠).

ترى ماذا سيفهم من القرآن ومن كلام الرسول الكريم ﷺ من ينظر إليه نظر المغشي عليه من الموت؟ لا شيء قطعاً. ولكن الذي يسدد قلبه نحو القرآن يستشعر بالحوادث التي تجري في الكائنات كنبضات قلبه. لماذا؟ لأنه

أوجد وحدة بينه وبين الكائنات؛ فالذين لا يملكون القدرة على جس نبض الحوادث لا يقال عنهم إنهم يعملون شيئاً كثيراً للإرشاد؛ إذ إن هذا الأمر ذو علاقة بكيفية النظر إلى القرآن ككل.

وإذا ما اقتربنا إلى المسألة نفسها من زاوية أخرى نقول: إن أول شرط لا يستغنى عنه المبلّغ قط هو تطبيقه الآيات الكونية الظاهرة في الآفاق والأنفسي على الآيات القرآنية المتلوّة، ومن ثم صياغة مركب منهما. وبمقدار نجاحه في هذا الميدان يوفَّق في تبليغه وإرشاده. وبخلافه لا شيء إلاّ الإسراف له ولمخاطبيه.

نعم، إن المبلّغ يتصف بكامل كيانه بالصفات الإسلامية، وجميعُ أطواره وأحواله تدل على حيازته لها. وإن القدرة على تحليل الآيات الآفاقية والأنفسية وصياغة تركيب منهما لا تفارق المبلّغ، فضلاً عن الاتصاف باللطف والنـــزاهة والشفقة والنظام وأمثالها من الصفات التي تجعل المؤمن مؤمناً حقاً.

وبتعبير آخر: كما أن كل صفة من صفات الكافر ليست بكافرة فكل صفة من صفات المؤمن أيضاً ليست بمؤمنة، وربما تكمن صفاتٌ مؤمنةٌ في تقدم الكفار في الوقت الحاضر في كثير من النواحي في أرجاء الدنيا، وان تلوثنا بصفاتهم الكافرة سبب انهزامنا. والحال ينبغي على المؤمن أن يتصف ويتشبث بكل صفة من صفات المؤمن، ولاسيما المبلّغون عليهم أن يسبقوا المؤمنين في التحلي بهذه الصفات بخطوات. فالمؤمن إنسان اللطف، وإنسان النـــزاهة، ومثال للشفقة والرحمة... وهو بهذه الصفات يرى الكائنات أنها مهد الرحمة، موطن الأخوة.. والمؤمن حياته منظمة بكاملها، لا يمر عليه آن إلاّ وهو منوّر، لا يعرف الإسراف في الوقت. وليس له قضاء الوقت في المقاهي، لأنه لم يرد شيء من هذا القبيل في السيرة المطهرة، بل موقعه خارج مسكنه المساجد والمعابد ومواضع تبليغ دعوته إلى المحتاجين، فهو محمّل بالمعرفة ومشحون بالعرفان وأبعد من يكون عن الأمور الاعتباطية، إذ هو رجـــل منهج وخطة دوماً، وهو الخبير بالعلاقة بين السبب والمسبب وهو النافذ نفوذاً تاماً إلى روح الأشياء.

نعم، مثلما ذكرنا أعلاه، إن سبب تفوق الغرب في الوقت الحاضر هو ما أخذوه من صفات المسلمين، لذا تراهم يجولون في الذرى. بينما تحوّل العالم الإسلامي إلى حمّال رذائل صفاتهم، فهو عندما يأتي إلى المسجد يلقي صفاتهم كالمعطف على كتفه، والآخر يسعى إلى الكنيسة بالصفات التي تخص المسلمين. بمعنى أن الغالب في الوقت الحاضر ليس الغرب نفسه، وإنما الصفات الإسلامية التي فيهم. وكذا المغلوبون ليسوا هم المسلمين بل الصفات الكافرة التي قلّدوها. فلا نجاة لنا حقاً إلاّ باعتصامنا القويّ بالقرآن الكريم.

## ٤- استعمال الوسائل المشروعة

الداعي إلى الله يتحرى بدقة الوسائل والطرق المشروعة لدى دعوته الناس وتبليغهم. إذ لا يُسلك إلى هدف مشروع إلاّ بوسيلة مشروعة، بل لا يمكن بلوغ الهدف المشروع بوسائط ووسائل غير مشروعة ألبتة. ولما كان هدفنا هو الحق ونحن أعداء الباطل، فلبلوغ هذا الهدف الحق ليس لنا أن نستعمل الباطل الذي هو عدوّنا. فبخلافه نكون قد كذّبنا أنفسنا وناقضنا جميع ما قمنا به من أعمال. وفي الحقيقة لا تقوم دعوة على الكذب، ولو قامت فلا تدوم قطعاً، فلقد رفع الله سبحانه البركة واليُمن من الأعمال التي اتخذ فيها العاملون للإسلام هذه الوسائل. فهم يستطيعون حشد ألوف من الناس في الشوارع والميادين ليطلقوا الخطب والهتافات، ولكن لا تبلغ بركة هذه الكثرة الظاهرة، بركة إرشاد ثلاثة أفراد دعاة لله صادقين قولاً وعملاً إلى ثلة من الناس في بيت متواضع. فالواحد من هذه الثلة يعدل ألفاً، بينما الألف من الآخرين لا يعدل الواحد.

القلوب بيد الله عزّ وجلّ. وقبول المخاطَب لما نقول له أو ما سنقول له، أي تهيئة مسببات الهداية بكلامنا معه، كل ذلك بيده سبحانه وتعالى. وحيث إن غايتنا توجيه الناس إلى الطريق الحق، فلا تنفعنا التعابير الكاذبة أو

الشـــبيهة بالكذب كالمبالغة، بـــل تضر بتحقيق غايتنا. فنحن مكلّفون ومأمورون بأداء وظيفتنا وفق ما خطّه الإسلام لنا. ولا يحق لنا بأي حال من الأحوال أن نـــزلّ إلى ميادين غير مشروعة تحت اسم العمل الإسلامي. ولا سيما في أيامنا هذه التي يباع فيها الكذب مع الصدق جنباً إلى جنب في حانوت واحد. إذن فنحن مضطرون إلى أن يكون كلامنا صدقاً وأحوالنا صادقة، ونتمثل الصدق خالصاً.

## ٥- الأجرة وطلبها

إن المبلّغ لا يريد جزاءاً ولا شكوراً من أحد عوضاً عما يؤديه من وظيفته المقدسة، مادياً كان ذلك الأجر أو معنويا وروحياً، لأن طلب الأجر يُذهب صفاء الإخلاص والصدق. وحالما يتكدر الصدق والإخلاص تتلاشى قوة التأثير. بل المبلّغ يقلق حتى على ما يورثه تبليغه من ذوق معنوي ولذة روحية أن يكدّرا صفو الإخلاص، ناهيك عن الأجر المادي الذي يجرح التبليغ. وإذا تداخلت منافع مادية في التبليغ رُفع الإخلاص كلياً. ولا يقال لهذا العمل: إنه تبليغ ولن يقال. وأوضحُ دليلٍ على ما ذكرناه ما يقوله القرآن الكريم نقلاً عن لسان جميع الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:١٠٩).

وفي الحقيقة يمكن أن نستشف تحت عبارة الأنبياء هذه أنيناً كهذا: "إنني أتقلب لأجلكم في ألم وقلق، وأنتم تهينونني وتطلقون عليّ إسم مجنون، وتحاولون إبعادي عن الناس وترجمونني، وأنا أسعى لأبلّغ الحق بيتاً بيتاً. بينما أنتم توصدون كل باب عليّ. وأنتم تحاولون بكل وسيلة أن تضيقوا الخناق عليّ وتصيبوني بالأذى. وأنا لا أطلب منكم شيئاً، لا في الدنيا ولا في العقبى. إن أجرى إلاّ على الذي أرسلني وقلّدني هذه الوظيفة".

فهذا صـــوت الأنبياء وأنفاسهم جميعاً منـــذ آدم عليه السلام إلى ســـيدنا

الرســـول الكريم ﷺ. وهذا هـــو روح أدائهم لمهماتهم.

فعندما أتى حواريو سيدنا المسيح عليه السلام إلى أنطاكية -إن كانت أنطاكية- إذا برجال الدولة يريدون سجنهم فوراً، فينفّذ الأمر، ويُزجّون في السجن. وما إن سمع حبيب النجار النبأ -وهو موضع ثقة لدى الجميع- حتى هرع إلى المسؤولين، وخاطبهم قائلاً: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(يس:٢١).

يذكر القرآن الكريم هذه الحادثة ملفتاً النظر إلى شرطين أساسيين، أو بالأحرى إلى وظيفتين أساسيتين للمبلّغ:

أحداهما: أن يكون المبلّغ نفسه مهتدياً.

ثانيتهما: عدم طلب أيّ شيء كان مقابل التبليغ.

نعم، لا يكون مبلّغاً أو مرشداً من لا يصلي، فلا يُسمَع كلام من لا يؤدي عباداته كاملة، خالية من القصور والنقص ولا يؤثر في المخاطب. وكيف يكون مرشداً من ملأ بطنه بالربا والرشوة والكسب الحرام.. إذ كيف يكون الذين غرقوا في حياة مسرفة فارهة مبلّغين ومرشدين وهم بحاجة إلى إرشاد لأجل آخرتهم؟

نعم، إن الذين لم يجعلوا حياتهم بمستوى السواد الأعظم ليسوا ممن يسيرون في طريق الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه الكرام.. بل أطوارهم وأقوالهم كذب في كذب. ولم يهتد أحدٌ إلى الصدق بالكذب، ومن لم يهتد إلى الصدق لن يكون هادياً لغيره قط.

إن المبلّغ كلوحة اتجاه ثابتة، يعلّم الصدق والصواب دائماً. فكل من يعاين حياته ومعايشته يرى الصدق بسهولة ويجده على سيماه. والأولى أن نقول ينبغي أن يرى ويجد.

والقرآن الكريم منبع هداية للمتقين. فكيف ينتفع من منبع الهداية هذا من لم يُدخل حياته كاملة في نطاق ما وضّحه القرآن الكريم؛ إذ الهداية الحقة هي الصراط المستقيم الموصوف في القرآن الكريم، فلا يبلغ الهداية من كانت حياته

غير مستقيمة. والتناقض بعينه إن كان هؤلاء أدلاء على طريق هداية الناس.

فالمرشدون والمبلّغون إذن عندما يؤدون ما تعهده الأنبياء عليهم السلام من وظيفة الإرشاد يسلكون طريق الأنبياء. ولا سيما من يتقدم إلى مهمة التبليغ في الوقت الحاضر عليه أن يستمع بقلب شهيد -أكثر من غيره- إلى المرشد الكامل الذي نوّر الله عقله كقلبه، وقلبه كعقله. إذ يقول: "إن أهل الضلالة يتهمون العلماء باتخاذهم العلم مغنماً، فيهاجمونهم ظلماً وعدواناً بقولهم: "إنهم يجعلون العلم والدين وسيلة لكسب معيشتهم" فيجب تكذيب هؤلاء تكذيباً فعلياً".[1]

نعم، لا بد من تكذيب أهل الدنيا فعلاً وإلاّ فما عداه كلام لا طائل وراءه. تتولى خدمةَ الإسلام جماعة من المحتسبين لله في كل زمان، على سطح الأرض. فهؤلاء المضحون لأجل سعادة الإنسانية، يعلّمونها كيف يكون المبلّغ الصادق. فهذه الزمرة الصادقة مع الله تعمل حسبة لله إلى حد تكاد تكفى تركته لكفنه، وقد لا تكفي أحياناً. فأنا أجمّل خيالي بهؤلاء البررة، إنهم حَمَلة عظماء لدعوة عظيمة.

لقد شاهدتْ هذه الأمة الكثيرين ممن يتمشدقون بالحياة الإسلامية واستمعوا إليهم كثيراً، ولكن كلما شاهدوهم واستمعوا إليهم خاب ظنُهم أكثر. وقد لا تتحمل هذه الأمة خداعاً أكثر من هذا، فهي الآن تنظر إلى الحياة الإسلامية المعيشة لا إلى الكلام، وتحتضن كل من يعيش بكلامه فعلاً حياة إسلامية، بل تضحي في سبيله، بينما لا تعير سمعاً ولا تكترث بمن لا يعمل بما عَلم.

ولأوضح المسألة أكثر فأقول: إنكم لاتثقون بالذين لايعيشون من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم حياة مشابهة لحياتكم "حياة السواد الأعظم"، ولا تعتمدون عليهم، فلا تتفق وفراسةَ المؤمن الاعتمادُ والوثوق بكل خَدّاع ماكر. وإذا أردتم الانتماء إلى أحدهم، فانظروا أولاً إلى حياته اليومية فإن

---

(١) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٦.

كانت تتسم بالتواضع والاستغناء، ولا تكذب أعمالُه أقوالَه، فاتبِعوه وانتموا إليه. وأعتقد أن هذا أمر فطريّ، إذ ليس من الصواب الانتماء والإتباع دون الإمرار على المحك؛ فالتاريخ أظهر كثيراً من أمثال هؤلاء. ولهذا يجب إتباع من كانت أحواله وأطواره "محمدية" وليست كثرةَ الكلام. فالذين يعدّون الخب مهارة وصنعة ليس لهم إلاّ الضرر للعمل الإسلامي، فهم بعيدون عنا روحياً، وسنبقى بعيدين عنهم.

ثم إن من انتمى إلى جهة وانضوى تحت منّتهم، لا يستطيع أن يفهّم أولياء نعمته شيئا، ولهذا فإن أبا حنيفة، والليث بن سعد، والإمام الثوري، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأمثالهم من الأفذاذ تعاملوا معاملة حذرة جداً في هذا الأمر، أي عدم الدخول تحت منّة أحد. ولهذا تجاوزت أعمالهم وأقوالهم العصور، حتى بلغت عصرنا، فعاصرونا. ألا ما أزهر ذلك العصر حتى نوّر العصور التي تلته واحتضن هذه الكثرة الكاثرة من الناس دفعة واحدة!

فمثلاً: "رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً، فقيل له: ما لك؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا، يلزمنا أحدُهم حتى إذا تعلّم، جعل قاضيا أو عاملاً أو قهرماناً".[1]

ورسالة سفيان الثوري إلى الخليفة هارون الرشيد معروفة ومشهورة، وهي أنموذج لكيفية المعاملة مع الحكام! إذ لما تولى هارون الرشيد الخلافة انتظر أن يأتي صديقه الحميم السابق سفيان الثوريّ لمبايعته –وهذا من حقه بلا شك– بيد أن سفيان لم يفكر مثله قط. ولم يتمالك هارون الرشيد فكتب إليه رسالة، وعاتبه فيها عتاباً رقيقاً جاء فيها: "..واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١/٨٤.

وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته...". ولما رأى سفيان الكتاب ارتعد وتباعد منه... وأدخل يده في كمّه ولفها بعباءته وأخذه، فقلّبه بيده ثم رماه إلى مَن كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أمسّ شيئاً مسّه ظالم بيده... فأخذه بعضهم.. ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه خليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي، فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه؛ فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصْلَى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلب حلاوة الإيمان... أما بعد: فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه... فشدّ يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل...". وبقية الحادثة يذكرها أحد الشهود في قصر الرشيد فيقول: "..فأقبل هارون يقرأ الكتاب ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق... ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله".[1]

ترى، ما القوة، وأين مكمن الشجاعة ومنبع الجرأة حتى خاطب الخليفةَ بهذا الأسلوب؟ هذه القوة هي عدم رضوخه لمتاع الدنيا، وتجاوزه الدنيا وكل ما سوى الله. ولو كان كأمثاله مرتبطاً بالدنيا لما استطاع أن يخاطب

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٥٠٧/٢، ٥٠٩.

الخليفة بهذا الأسلوب. علما أن ذلك الخليفة كان مؤدياً لصلواته الخمس يومياً، وقد حج مراراً واعتمر، وله من النوافل ماله من صيام وقيام، فضلاً على رقة قلبه ولطفه، ولكن الأمر هو أن له بعض أعمال يأثم مرتكبها فأيقظه أحد أصدقائه السابقين بهذا الأسلوب.

وقفة قصيرة هنا لأعرض وصيتي الأولى والأخيرة إلى الأجيال المقبلة الذين يُنتظر منهم خلاص الإنسانية: كونوا أعزاء كرماء. لا تدعوا مراكز القوى المعلومة أن تمكّن منكم. وحتى إن ترددتم عليهم لأجل دعوتكم فكونوا مستغنين دائماً، وإياكم أن تدخلوا ضمن قيود الآخرين لدى نشركم الحق والحقيقة. إن ما وضع الله سبحانه من أسس وقواعد لَمِـــنَ الأهمية بمكان. وأنتم ليس عليكم إلاّ إظهار العبودية له. وعندها يكون لكلامكم تأثير ووقع ويتقبل تبليغكم في وجدان الآخرين. وقد تكفل سبحانه بذاته إعطاء قوة التأثير لكلامكم إذا لم تنتظروا شيئاً من الآخرين، إذ تأخذونه من الله سبحانه. وكيف ذلك؟ هو: بتأثير كلامكم في الدنيا، وتشرفكم بجمال الله والجنة في الآخرة. وإن لم تعملوا على هذه الشاكلة وأردتم من الناس شيئاً، يزول تأثير كلامكم أولاً، وتُحرمون من أعظم النعم.

إن مناصب الدنيا وجاهها زائلة فانية. لا تستحق أن يُرتبط بها ولا الاغترار بها! ولكن في الوقت الحاضر يجوز العمل في وظائف الدولة ضمن حالات الاضطرار. وفي أيامنا هذه إذا ما عاش الموظف وعائلته من مرتّبه فإنه من الورع ألاّ يترك ميراثاً، لأنـــه قد اختلط -بصورة عامة- كثير من المحظورات مـــع المرتّبات. وهذا كلام خاص قيل في الظروف التي نعيشها. وآمل أن تتبدل هذه الظروف كلياً، ويجد كل واحد الطريق المشروع للكسب.

ولقد عزمنا نحن في سبيل أداء التبليغ ليس على ترك المقامات والمناصب الدنيوية وحدها بل حتى على ترك المقامات والمناصب الأخروية، لو كانت لنا في سبيل التبليغ. نعم فكما نفضل تفهيم بعض الشيء في سبيل الحق إلى بضعة أشخاص على أن نكون نواباً في البرلمان، فإننا إذا اقتضت الضرورة

نرجّحه على القطبية والغوثية، لأن الأصل هو تذكير الناس وإرشادهم، فلا مقام أرقى وأفضل منه سواءً كان دنيوياً أم أخروياً. لذا فإن جعل التبليغ تكئة لبلوغ مآرب دنيوية -كأن يستعمل الشهرة والصيت التي حازها المبلّغ في أثناء نشره الحق والحقيقة- حماقة كحماقة من يستبدل قطعاً زجاجية تافهة بقطع الألماس الثمينة.

ففي رواية ضعيفة أن في عهد موسى عليه السلام مُسخ إلى خنـــزير مَن كان يجعل الدين مغنماً، مع أنه كان يذكر موسى عليه السلام وعظمته أينما حلّ من مجلس، ولكن لأنه كان يستغل ذلك لمنافعه الشخصية مسخه الله إلى أخس الحيوانات.

لا شك أن المسخ صورة قد رُفع عن هذه الأمة الإسلامية لوعد قطعه الله على نفسه لحبيبه ﷺ، إلاّ أن الكثيرين كانت عاقبتهم مثل هذا الشخص سيرةً.

نسأل الله العلي القدير أن يحفظنا وجميع المبلّغين المرشدين من السقوط إلى هاوية هذه العاقبة، إنه للدعاء سميع وبالإجابة جدير.

## ٦- معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم

### أ- معرفة المخاطب

إن المبلّغ يتفقد أحوال مخاطبه عن كثب، ويتصرف تجاه أخطائه برحابة صدر، فيتخذ تجاه المؤمن طور المروءة. أما تجاه أهل الكفر والإلحاد فيتصرف بالدراية والكياسة. وبهذه الأساليب يتمكن أن يتقرب إلى قلب مخاطبه ومنطقه من جهة، محبباً إليه ما يريد تبليغه ويسوقه إلى القبول من جهة أخرى.

نعم، المبلّغ يعرف جيداً أوضاع مخاطبه، فيبتعد كلياً عن كل ما ينفّره من أسلوب أو تصرف، فما يبلّغ إلاّ أموراً سامية طاهرة. ولاشك أن من يبلغ عن الله ورسوله ﷺ وكتابه واليوم الأخر ويحبب ذلك إلى قلب مخاطبه، يقدر

مدى أهمية عمله فيقوّم أحواله وأطواره وتصرفاته وفق تلك الأهمية؛ لأن أيّ امتعاض يستشعره المخاطب من أطواره، ربما يكون سبباً لتنفيره مما هو مكلّف أن يحببه إليه. فهل من خسارة أفدح من هذا؟ وسنتحمل جميع المسؤوليات في الآخرة إن كانت نابعة من أحوالنا وسلوكنا.

تأملوا! كيف كان الرسول ﷺ يبلّغ بأسلوب لا يشعر معه المخاطب أنه غارق في الإثم؛ فلم يك يخاطب الكافر ولا المجرم كمدان أمامه، بل كان يوجه كلامه بصورة عامة، دون تشخيص وتحديد، وكان يصعد المنبر ويرشد إلى أمر من الأمور الفرعية التي رأى تقصيراً فيها داخل الجماعة.

كان صحابي ﷺ يدعو ربه ممداً يده إلى السماء رافعاً صوته، وهو قريب من مجلس الرسول ﷺ. فهذا الوضع يخالف آداب الدعاء، ولكن الرسول ﷺ بدلاً من أن يخاطبه ويبين خطأه، خاطب الجميع قائلاً: "اربَعوا على أنفسكم إنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا إنّكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم".[1]

و"جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّي وَالله لأتأخّر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا فيها". فاشتد غضب الرسول ﷺ من هذا الكلام وهو أعلم بالإمام، ومع هذا لم يستدعه ليحاسبه بل خطب بالناس مرشداً لهم وقال: "يا أيّها النّاس إنّ منكم مُنَفِّرِينَ فأيّكم ما صلّى بالنّاس فليُوجزْ فإنّ فِيهم الكبيرَ والضّعيفَ وذا الحاجة".[2]

هكذا كان أسلوبه ﷺ تجاه أخطاء الآخرين، حيث كان يسعى لإنقاذهم، لذا قدم لهم كل مسألة من المسائل بأبسط أشكالها وأكثرها عملياً.

فقد قال رسول الله ﷺ: "أيّها النَّاس قولوا لا إله إلاّ الله تُفلحُوا".[3] ومن هنا نرى أنه خطأ جسيم أن تجعل المخاطب في حالة الشعور بالإثم، بل يقال

---

(١) البخاري، المغازي ٣٨؛ مسلم، الذكر ٤٤-٤٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٠٣/٤.

(٢) البخاري، الأحكام ١٣؛ مسلم، الصلاة ١٨٢.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند ٤٩٢/٣، ٦٠٣/٤.

ما يراد قوله دون تشخيص أحد من الناس، وعلى المبلغ أن يستفيد من هذا الكلام كلٌ حسب استعداده، كاستفادة الأشياء من أشعة الشمس، وبخلاف هذا الأمر يصعب التئام الجروح.

### بـــ- الحذر من النقاش والمراء

إن المبلّغ حذر جداً من أن يؤول الكلام في الحوار إلى جدال ونقاش، إذ المتكلم في المجادلة والمناقشة هو "الأنانية". فهذا الجو الذي لا يراد به الوصول إلى الحق، يسلّم زمامه إلى الشيطان. ولهذا فمهما كان الكلام الذي نريد أن نبسطه للمخاطب مقنعاً ومؤدباً، لا يؤثر فيه ولا يجد القبول الحسن لديه. وإذا ما نظر إلى المسألة من زاوية نفسية المتحاورين يظهر أمامنا أن المراء لا خير فيه، لأنه مثلما نتهيأ للظهور على خصمنا كذلك المخاطب يتهيأ مثلنا في الأقل، ولا شك أن الأدلة التي نسردها لإثبات مقولتنا قد استعد هو لتفنيدها بأدلة أخرى. وهكذا يتحول الحوار في المراء إلى كلام عقيم ولو طال ليالي وأياماً.

لقد دخل الرسول الكريم ﷺ مرة أو مرتين مناظرة وحاول إقناع مخاطبيه[1] إلاّ أن أمراً لا بد أن يُنبّه إليه هو أن الطلب كان يأتي من الجهة المقابلة، وفي مثل هذا الموقف لا يظل الرسول ﷺ ساكتاً، لما يؤثر في القوة المعنوية لمستمعيه. ومع هذا فالذين أتوا لأجل المجادلة والنقاش أكثرهم لم يقتنعوا قناعة تامة وإنما أُلزموا إلزاماً، والإلزام لا يعني أن المخاطب قد اهتدى.

ولقد قابل الرسول الكريم ﷺ علماء بني إسرائيل طوال سنين، ولكن لم يحدث أن اهتدى واحد منهم في مثل هذاه اللقاآت، علماً أنه رسول عظيم ينـــزل الإلهام من العرش الإلهي إلى قلبه الطاهر كالشلالات، وخلقت الكائنات

---

(١) انظر إلى: الترمذي، الدعوات ٦٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/٤٤٤؛ الإصابة لابن حجر، ١/٣٣٧؛ السيرة لابن هشام، ١/٣١٣، ٣١٨.

لأجله، وتزخر سيرته العطرة بالمعجزات. ومع هذا فكل من دخل ضمن نطاق المجادلة والمناقشة لم يعرج إلى عرش الهداية وإنما ظل في نطاق الإلزام.

كان عبد الله بن سلام الذي يهودياً، فأتى الرسول ﷺ لقبول الحقيقة، فقال في نفسه: إن كان هذا هو الذي شمائله مذكورة في التوراة، أؤمن به، قال: "فجئت في النّاس لأنظر إليه فلمّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رسول الله ﷺ عرفت أنّ وجهه ليس بوجهِ كذّاب".(١)

وفي المراء أيضاً لا يخطر بالبال دائماً رِضىَ اللهِ سبحانه، لأن المبلِّغ والمبلَّغ له، يكونان في حالة متوترة ومشدودة بالأنانية، ففي مثل هذا الجو الذي ليس فيه رِضىَ اللهِ سبحانه مهما كان الكلام جيداً لا يحصل منه الهداية والتأثير حيث الهداية بيد الله وحده، ولا ترد في مواضع ليس فيها رضاه سبحانه.

### جـ- الانخلاع من الأنانية

الأنانية عامل يعيق الهداية، ويزيل بركتها، سواءً للمبلّغ أو المخاطب. لذا فالمرشد والمبلّغ ينخلع من هذا الحس المضر، بل يقول ما يريد قوله ضمن تواضع وإنكار ذات. وبهذا ينقذ مخاطبه أيضاً من فكر مسبق ومن العناد. وفي الحقيقة لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتشبث بالأنانية. ومن الواضح أن كثيراً جداً من الكلام الذي يستعمل فيه المبلّغ أنواعاً من العقل والمنطق والبلاغة والفصاحة مع ما ينساب من لسانه من البيان إلاّ أنه لا يؤثر على أحد قط. بينما من لا يكاد يبين ولكن فؤاده منسحق، إذا بكلامه يكون مؤثراً، ويجعله الله سبحانه وسيلة لهداية قسم من الناس.

### د- معرفة البناء الفكري للمخاطب

سأتطرق إلى مسألة ربما تعدّ من الأمور الفرعية ولكن لا يمكن تجاوزها: على المرشـــدين والمبلّغين أن يهتموا اهتماماً جـــاداً بالبناء الفكري

(١) الترمذى، صفة القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، الإقامة ١٧٤.

لمخاطبيهم. وإذا ما حصرنا المسألة في دائرة ضيقة خاصة نقول:

إن وجود الجماعات الإسلامية في يومنا هذا حقيقة واقعة، والاعتراف بوجودها شيء وتصويب عملها شيء آخر. وإن التعامي والتغاضي عن شيء موجود فعلاً ورفضَه لا يأتي بشيء؛ لذا فالمرشدون والمبلّغون عليهم أن يتذكروا كلَّ حين أن أيّ شخص في محيطهم أو ممن يستمع إليهم ربما هو منتسب إلى مشرب معين أو إلى إحدى الجماعات، فيوردوا كلامهم وفق ذلك، ولا يذكروا ما يومئ إلى تهوين جماعة أو انتقادها والأدهى من ذلك اغتيابها. فكل مشرب أو جماعة -فضلاً عن قبولها أن مشربها ومسلكها حق وجميل- عليها أن تكون على خُلق التسامح مع الآخرين، ومعترفة بحق الحياة لهم، ذلك لأن الله سبحانه لا يرضى خلاف هذا الطور الذي يقطع البركة ويزيل اليُمن. وليعلم كل مرشد أنّ عليه احترام الجماعات جميعها، ومسايرة عرفان مخاطبه، ليكون كلامه مقبولاً لدى الجماعات كلها، إذ لا يرضى الله عمن يتعامل بسوء مع مَن يذكُره، ولا ممن ينتقد المؤمنين، ويقطع الصلة مع الذين ارتبطوا به، ولو بكلمة التوحيد وحدها.

والحقيقة أن مدى ارتباط المبلّغ بالله سبحانه يتبين مما يمدّه من عرى العلاقة مع كل من له ارتباط بالله؛ فمقياس علاقتنا مع مخاطبينا هو بنسبة علاقتهم بالله سبحانه. والمرشدون والمبلّغون يراعون هذا الأمر أكثر من غيرهم، فيدعون الناس لا إلى مشربهم بل إلى الإسلام مباشرة. ولعل انبساط هذا الشعور هو أهم عامل في دفع الجماعات والمشارب المختلفة إلى الاتحاد وجعلهم كالجسد الواحد.

إن معرفة المخاطب هي بالإحاطة بمستواه الاجتماعي وبناه الثقافي. هذه حالة مهمة جداً من حيث فن التبليغ، فكما أن التبليغ والإرشاد وظيفة، فإن معرفة فن التبليغ وظيفة أخرى. فمثلاً: إذا واجهك عدو مسلح بالمدفع والبندقية، وأردت صدّه بالعصا. فهذا عمل بلا شك، ولكن تصبح به سبباً

لفشل ذريع، لأنك لم تراع فن التبليغ، ولا سيما إن كان هذا الطور في نطاق عمل إسلاميّ فإنه يضر كثيراً.. ولقد ذكرنا سابقاً وأكّدنا عليه: أن معرفة فن التبليغ أحد الشروط التي لا يمكن أن نتجاوزها، بل هي في مقدمة شروط التبليغ. فبمقدار إيماننا بضرورة التبليغ نعتقد أنه ضروري أيضاً فن التبليغ. فالكلام الصادر منا إن كان فوق المستوى الثقافي للمخاطب بكثير أو دونه بكثير، فعملنا هذا لا يوافق فن التبليغ وقد لا يجدي شيئاً. فالمسألة التي تشرحها ابتداءاً للغارق في الإلحاد، المضطرب في الكفر، ليست بفضائل قيام الليل والتهجد بلاشك، بل تفهّم له الأسس الإيمانية فهماً ملائماً لمنطقه العقلي وبأسلوب علمي حيث إن الكفر يرد في الوقت الحاضر من جانب العلم. ولكن ويا للأسف كم من أخطاء ترتكب نحو الملحدين البائسين هي نابعة من التشخيص الخطأ وأسلوب العلاج الخطأ. نعم، إن الانشغال بمظاهر الجيل الحاضر وبملابسه بدلاً من الانهماك بتعمير قلبه وضماد جروحه، دفَعه إلى النفور والهروب.. فمثل هذا الخطأ في فن التبليغ مسألة جديرة بالاهتمام حيث يؤدي إلى ضياع حياة الإنسان الأبدية.

نعم، إن كان الذي تخاطبه يتكلم باسم العلم والفن فلا يعقل أن تقرأ عليه من كتب الفقه الأولية. وهذا لا يعني قطعاً التهوين من شأن هذه الكتب الفقهية، وإنما المقصود إفهام أن هذا العمل ليس في موضعه. وكذا إن كان المخاطب ينكر الآخرة، فأنت لا يمكن أن تتقرب إليه بذكر مناقب الأولياء؛ فالإنسان ليس مخلوقاً من مشاعر وحواس فحسب كي تؤثر فيه هذه المناقب، فهو علاوة على تلك المشاعر يحمل منطقاً في عقله، ولا بد أن يقتنع من حيث المنطق أيضاً؛ يقول سعد الدين التفتازاني لدى شرحه الإيمانَ: إن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده، أي بعد صرف الجزء الإختياري، فعليك أن تشرح الإيمان بالأدلة، والله سبحانه ينوّر قلبه بالإيمان. والحقيقة أن هذا الإيمان يَسُوق الإنسان إلى العمل الصالح وإحلال الدين كُلاً لا يتجزأ في الحياة المعيشة. بينما الإنسان الذي دخل الدين

بمشاعره وأحاسيسه، ربما يتركه عند غلبة تلك المشاعر والأحاسيس بشكل آخر.

يشير القرآن الكريم في مئات من آياته الكريمة إلى مسائل العلم والتكنولوجيا، ولكنه ليس كتاباً للفيزياء أوالكيمياء، وإنما القرآن يحث المؤمنين ويرشدهم بإشارات وإيماءات لأجل الإرشاد العام وللحاجة إلى هذه الفروع العلمية. والذي لم يطلع ولو قليلاً على علم الفلك، ولم يقرأ علوم الحياة ولو قراءة عابرة، لا يمكن أن يفهم كثيراً من آيات القرآن الفهم المطلوب؛ لأن فهم آيات كثيرة جداً مرتبط بالاطلاع على هذه العلوم. وهنا نذكر الآتي من دون أن نطيل الكلام في فروع العلم المختلفة، فنقول: إن مرشدي ومبلغي يومنا الحاضر بحاجة ماسة إلى متابعة ما وصل إليه العصر من علوم وفنون وتكنولوجيا ولو بشكل معلومات أولية،وبخلافه يظل إرشادهم إرشاداً خاصاً لا يشمل الناس عامة.

### هـ- معرفة ثقافة العصر

إن أحوالنا الحاضرة تدمي القلوب شباباً وشيباً. وهذه الحالة المؤلمة نابعة -إلى حد ما- من ضحالة ثقافة مَن يتقدم إلى الإرشاد والتبليغ. إذ لا يمكن من يجهل ثقافة عصره ومدى فهمه وأسلوب خطابه أن يفهّم إنسان عصره شيئاً. ويجب ألاّ يخطر بالبال: إن كان مضراً تفهيم شيء للآخرين من دون الإطلاع إلى ما ينبغي الإطلاع والتعرف عليه من علوم العصر، فهل يسقط عنا وظيفة "الأمر بالمعروف"؟ كلا!! بل لئن استدعى الذهاب إلى النجوم لأجل الإرشاد واستوجب جلب ما ينبغي تبليغه من هناك، لكان من أفرض الفروض الذهاب إلى هنـــاك وجلب ما يجب لتقديمه إلى المحتاجين. فلقد صرعوا جيلنا بالفيزياء، وأركعوهم بالكيمياء، وأنـــزلوا على رؤوسهم الشهب بالفلك. فيجب عليك أمام هذا الموقف ألاّ تقف مكتوف اليدين. بل هو دَين عليك أن تأخذ بيد هذا الجيل مستعملاً الوسائل نفسها لترفعه

من كبوته وتضمد جراحاته المادية والمعنوية وتسمو به إلى الأعالي من جديد. وتعلوا معاً كيلا يتردى مرة أخرى وينسحق تحت الأقدام.

إن كل شيء في الكون وكل ما يحدث فيه لسان وغصن، فالمؤمنون عليهم أن يتعلموا هذا اللسان ويستمسكوا بهذه الأغصان، وإلاّ عجزوا عن فهم الآيات التكوينية. وكل فرد أو أمة لا يفهم الآيات التكوينية يُضرب عليه الذل والمسكنة. علماً أن القرآن الكريم يشرح هذه الآيات التكوينية ضمن آياته البينات. ولا يُعدّ تالياً للقرآن الكريم حق تلاوته مَن كان يسد أذنه عن هذه الآيات التكوينية ولو ختم القرآن يومياً. فلقد أرسل الله القرآن ليتدبّر الإنسان ويفكر في آياته، وكل من ينصر القرآن عليه أن يفهم هذا الأمر.

إن الحقائق التي نبلّغها مهما كانت مباركة وسامية، مشكوك أمر تأثيرها إن لم تُبلّغ وفق إدراك العصر وفهمه وأسلوبه. وتقديم الدين والقرآن على صورة موضوعات غامضة ملفعة بالأسرار والتي لا يمكن أن تمر من مصفاة المحاكمات العقلية، لا يعدو عن كونها غير تكدير لأذهان الجيل وزيادة كفر الكفار. ونحن منذ سنين نرى بوضوح هذه اللوحات المؤلمة ونملأ صدورنا هماً وكمداً.

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فوق مستوى ثقافة عصرهم بكثير. وكانوا يبلّغون مسائل الدين بمستوى ذلك العصر الثقافي. والذين تبعوهم كانوا أيضاً مثلهم في التبليغ. فمثلاً ما كان يفهمه الإمام الغزالي وهو مجدد عصره يجعل المخاطبين في ذلك العصر في حيرة وإعجاب. ودامت هذه الحيرة والإعجاب إلى مدى العصور. ومما يجلب الانتباه رأي مفكري الغرب من أمثال "جب" و"رينان" عن الإمام الغزالي، إذ قالوا: لم نر أحداً متمكناً من ثقافة عصره كالغزالي. وهكذا كان جميع الأئمة الأعلام من المجددين كالإمام الرباني، ومولانا خالد، وأمثالهم من العظام الذين سبقوا عصورهم علماً وثقافة. وكانوا يبلغّون الدين وفق مستواهم الرفيع ويتنفسون

أنفاسه. ولهذا وقع كلامهم في قلوب مخاطبيهم موقعاً حسناً ووجد قبولاً عاماً عندهم.

## و- المرشد مرِن

نعم، يكون مرناً ويحافظ على مرونته هذه، لأنه أحيانا ينـــزل في أعماق الوديان العميقة، وأحياناً يصعد أعالي المنابر؛ إذ بين مخاطبيه من هو في كلتا النقطتين، وهذا يقتضي أن تكون مساحة ثقافته واسعة جداً. وإلاّ فلا يكون مرشداً حقاً، بل من قطاع طريق الإرشاد من الأشقياء.. وما عليهم إلاّ أن يتنحوا من أمام الأمة، وألاّ يكونوا ظلاً قاتماً عليها، وأن يفتحوا الطريق لكي يأتي المرشدون الحقيقيون ويمدّوا أيديهم إلى هذا الجيل المنكوب.

يقول أحد كبار المرشدين، الذي يخفق قلبه بآلام الأمة: "إن قلب المؤمن يتفجر ألماً بعدد ذرات وجوده حيال جحود شاب". نعم هذا هو القلب المضطرب. ومن لا يشعر بهذا القلق لزوال الإيمان من الجيـــل ليس جديراً بالإرشاد. فالمرشد هو البطل الذي يدرك عصره ويستهين بزخارف الدنيا كلها. بل ينسى -ولو موقتاً- نعيم الجنة، ساعياً لأداء مهمته، حسبةً لله وكسباً لرضاه وحده. نعم هكذا يجب أن يكون ليحظى بتوفيق الله وليطمئن إليه مَن حوله.

سبق وأن ذكرنا ما يلزم أن يعرفه المرشد عن مخاطبيه؛ فكما أن إعطاء الدواء قبل تشخيص المرض خطأ بيّن، كذلك القيام بالتداوي قبل تشخيص ما يعاني منه المخاطب خطأ مثله، بل أدهى وأمر. وهذا هو إحدى وظائف المبلّغ. ولا أرى داعياً لأذكر أنه لا يلائم كل مرض أي دواء كان.

أناس أعرفهم، يجدون خلاص الإنسانية في العمل في ســـاحة الاقتصاد والصناعة الثقيلة فيُكثرون الكلام حول أهميتها. فمثل هذه الأفكار على الرغم من أنها تدور في الأوســـاط باسم الإسلام إلاّ أنها لا تعدو أكثر من تقليد بسيط لماركس وأنجلز. فقد أفلست هذه الأفكار وتفرق منتسبوها ولم يتمكنوا من الحفاظ على حيويتهم، فكيف بالأفكار التي هي تقليد ساذج لها

يمكنها منح الإنسانية الحياة المطلوبة؟ وكيف يعقل هذا فضلاً عن أن يسوق من يتبعه إلى مثل هذه المغامرة؟ إن تصديق مثل هذه الخدمة أمر ثقيل عليّ.

كلا.. ثم كلا.. فو الله إن لم تتكفلوا بالجيل الحاضر وتربوه في ميدان الروح، وتنفخوا فيه الروح، ولم تعمرّوا فيهم الشعور الأخروي، فلن تنفع تنشئته بالتمشدق بالحضارة ولا المصانع التي تقيمونها أو أقمتموها.

إن هذا الجيل السائب الخاوي من الروح لا يشبعه أي فكر مزخرف مزركش ما لم يرعوه رعاية منظمة. والظن بأنه يمكن علاج اضطراب الجيل بالحلول الاقتصادية هو الغفلة بعينها.

ولما كان العالم الإسلامي في الوقت الحاضر قد فقد القدرة على الكلام وفق فنون العصر، فقد أُســـقط من موقع الخطاب للعالم. فهو في موضع الاستماع والاستماع فقط لا غير. ولو تمكن من تركيب ما سمعه وتحليله، فلعل يوماً من الأيـــام يتمكن من الارتقاء إلى موقع القائد فيُسمِع الآخرين كلامه. ولكن وآأســـفاه لم يستطع أن يكون بعدُ حتى مخاطباً جيداً، وانعكست هذه الحالة المزرية نفسها على الدعوات الخاصة أو المؤسسات الخاصة. وأصحاب هذه الدعوات أصبحوا عاجزين أمام مخاطبيهم بنفس القياس. علماً أن في أيدينا القرآن الكريم الذي يتحدى عقل العالم بأسره ويخاطب الإنسانية كافة. وكذا في أيدينا السنة النبوية الخالدة التي توضح القرآن أجمل توضيح. وكم هو مؤلم أننا لم نعرف لحد الآن كيفية الاستفادة الحقة من هذين المصدرين. فلم نغص في البحر المحيط القرآني باتحاد العقل والقلب معاً. ولهذا صمت القرآن والسنة ولم يحدثانا بمكنونات نفسيهما، فلئن مضينا على هذه الحالة فإن صمتهما سيدوم. فلا نجاة لمسلمي اليوم من هذا الكابوس المخيم عليهم.

نعم، الدنيا في تحول وتغير. والعلم والتكنولوجيا يتوسعان وينتشران بسرعة مذهلة ولكن ما يقوله بعضنا لا يتفق ومقاييس الدنيا المتوسعة، بل

يتعلق بما قيل قبل ثلاثة عصور ويظل هناك لا يغادره، فنكون بعيدين جداً عن جيلنا الحاضر. فلا يعير سمعه لكلامنا.

### ز- النظر من زاوية العصر

المرشد والمبلّغ في الوقت الحاضر لا بدّ أن ينظر من زاوية عصره المعيش، قبل أن يتطرق إلى المسائل. وهو بادئ ذي بدء يجب أن يكون خبيراً بالبناء الروحي للمخاطب. ويجب أن يعلم أيضاً ما هي المسائل التي انغرست في ذهنه انغراس السهم المسموم. ثم يتكلم بما يريد أن يتكلم ضمن هذه المعرفة. وذلك كي يلقى القبول الحسن، وينعكس في قلب المخاطب ويستقر في ذهنه؛ حيث إن جيلنا الحاضر يفقد دمه، ونحن لا نعطيه إلاّ مضادات حيوية.

إن المسائل التي تطرقنا إليها إلى هذا الحد، ليست ادعاءات مجردة، وإنما ركائز في الإرشاد تستند إلى الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم في أول آية نـــزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١) يلفت النظر إلى الآيات التكوينية لدى ذكر الخلق.. فجميع الفلاسفة بدءاً من أبيقور وديموقريط ومنه إلى سقراط وإلى أفلاطون وحتى الذين عاصروا الرسول ﷺ انهمكوا كلهم بموضوع الخلق وسعوا في تحليله وتدقيقه. بمعنى أن الناس -في ذلك الوقت- كانوا على شيء من المعلومات عن الخلق. فكانوا على علم بأن بدء الإنسان من قطرة ماء وأن الجنين يمر بأطوار مختلفة في رحم الأم؛ ولكن القرآن الكريم تناول المسألة من زاوية واسعة جداً وخاطب الناس: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾(العنكبوت:٢٠).

هكذا يقول القرآن، والعلم البشري والفكر البشري لم يوضحا لحد الآن، كيف بدأ الخلق، ولن يوضحاه؛ إذ لا يمكن ذلك إلاّ بإسناد الأمر إلى الله جل جلاله.

بينما القرآن الكريم يستهل دعوته بإيضاح هذه المسألة المعضلة المحيّرة، وفي الوقت نفسه يلفت الأنظار إلى الآيات التكوينية، والتي قلّدها القدرة

الإلهية والإرادة الربانية كقلادة مزينة في عنق الكون، وجعلتها كمعرض عجيب أُشهر للأنظار ككتاب مفتوح أمامنا لقراءته. فنحن إذن في موقف تدقيق ما في هذا الكتاب والمعرض والقلادة، لأجل تقويم الحوادث الجارية وفهمها، ولا عدول لنا عنه.

فالمرشدون والمبلّغون الذين يسعون لإدامة حيوية جماعتهم بمجرد إثارة العواطف والأحاسيس، يخالفون الآيات التكوينية، ولا يَعِد سعيُهم شيئاً للمستقبل. لأن الخطوات المبنية على حُسن الظن فحسب ملتوية ومنحرفة لا تستقيم، لذا تدع صاحبها في قارعة الطريق بعد فترة قصيرة. ولكن لو تمكنوا أن يشعلوا جذوة حماسهم باتحاد العقل والقلب معاً وهيأوا جماعتهم لمواكبة شروط الزمان، فإن هذه الرابطة لا تنفصم قطعاً، لأن مرور الزمان لا يؤثر فيها، والحوادث المثيرة تقويها وتشحذ الهمم والإرادة.

أريد أن أنتقل إلى أمر آخر استطراداً: إن هذه اللوحة مثيرة جداً أمامنا جميعاً وهي:

إن كثيراً من أبناء أناس متدينين يتمرغون في الإلحاد والكفر، سواء في خارج البلاد أو داخلها. وبالمقابل هناك الكثيرون من أبناء أناس لا نصيب لهم من الدين ينعمون بالإيمان. حتى إن بعضهم هربوا من ضغوط عوائلهم بحثاً عن مواضع ليديموا حياتهم الدينية. ولن أذكر ما شاهدته من الوقائع حيث لا تغني المسألة شيئا، ولكن لنعلم أن مثل هذه الحوادث قد وقعت وستقع أمثالها في المستقبل؛ فالعائلة التي ترفل بالدين و لم تعلّم و لم تقْدِر على تعليم الدين بقدر عقول أولادها وبمستواهم الروحي، يحصل فراغ في أذهان أطفالها، والشبهات التي تتعلق بهم تسبّب إنحرافهم عن الدين وخروجهم عنه؛ إذ من الطبيعي ألاّ يسأل هؤلاء أحداً من خارج العائلة عن المسائل التي تدور في أذهانهم، لأنهم تربّوا في جوّ ديني في كنف العائلة. ولكن التربية الدينية التي تلقوها في البيت لا توصلهم إلاّ إلى حدّ معين.

فقد كنت ضيفاً على عائلة كهذه وكنا نتباحث مع رب البيت، الذي كان متديناً خالصاً ذا قلب رقيق سليم حتى استحييت من نفسي أمام هذا الطهر والنقاء. وبعد برهة دخل علينا ابنه الطالب الجامعي، وفهمت من كلامه أنه ملحد، وكأن البيت قد انهدّ عليّ وجمدتُ في مكاني، فقلت في نفسي قاصداً ذلك الرجل الطيب: يا ليتك لم تنشئ ابنك ملحداً بدل أن تظل نقياً تقياً إلى هذا الحد.

ومقابل هذا فالطفل الذي يتربى في أسرة لا دينية يجد دافعاً في نفسه للاستفسار عما لم يتمكن من حله من المسائل، فأية يد تمتد إليه من الخارج وتتمكن من حل معضلاته فسيرضى بالإسلام ويحبه لأن الإسلام قد فهّم له وفق شروط زمانه. بينما تدين الطفل الآخر الذي تربى في عائلة دينية لم يتجاوز التقليد، وقد بلغ به الأمر حداً لم يعد ينفعه هذا الإيمان التقليدي. والآن نرجع إلى صدد الموضوع.

## حـ- النـــزول بمنازل المخاطب

يقتضي مستوى المخاطبين النـــزول إلى مستواهم، فالمرشد والمبلّغ في هذه الحالة عليه أن يكلّمهم بقدر عقولهم. ويمكن أن نوضح هذه الملاحظة بالآتي:

إن النـــزول بمنازل المخاطب خلق إلهيّ، والرسول ﷺ يدعونا إلى التخلق بأخلاق الله، والقرآن الكريم بكامله كلام إلهي تنـــزل على عقول البشر. تُرى كيف كان حالنا لو لم ينـــزل القرآن منسجماً مع استعداداتنا وعقولنا وطاقاتنا.

نعم، لو كان الله سبحانه تكلم في قرآنه المجيد بمثل ما تكلم به مع موسى عليه السلام في جبل الطور لما كنا نطيق كلامه. وأيضاً لو كان القرآن قد نـــزل بأسلوب يفهمه ذوو القرائح الداهية لما كان يستفيد منه تسعة وتسعون بالمائة من الناس. والحال أن الأمر ليس هكذا؛ فالله سبحانه وتعالى ينظر إلى وضع مخاطبيه فيخاطبهم وفق ذلك بما يلائم إرادته وعظمته وربوبيته. ومن المعلوم أن كلامه

جل وعلا لا يقتصر على القرآن وحده، إذ لكلامه اللائق بعظمته كيفيات كثيرة من كلامه المنسجم مع عظمته ولكن نحن لا نعلمها. والذي نعلمه هو: أنه جل وعلا خاطب الإنسان بمستوى إدراكه وفهمه بسر الأحدية.

أجل، نحن نجد فهمنا ومستوى إدراكنا في القرآن الكريم، وكأن القرآن يخاطب كل إنسان بمستواه، فمهما كان المستوى الفكري للقارئ يجد القرآن يخاطبه. حتى يشعر الإنسان في القرآن أن أحداً قريباً منه يعرّفه بأدق تفاصيل أسراره وخباياه.

وكون القرآن على هذا الأسلوب طبيعي جداً، ذلك لأن القرآن كلام الله ذلكم الرب الجليل الذي خلق الإنسان من العدم وأنشأه في عالم المادة (الجسماني) وهو أعلم بما في قلبه كل آن، ثم نفث فيه الروح من عالم الأمر، فلا الروح تعرف معرفة تامة ما الجسد الذي دخلت فيه، ولا الجسد يعرف تماماً ما الروح التي تديم حياته، والأعلم بهما مَن خلَقَهما ومَن جمعهما، والقرآن كلام هذا الرب الجليل.

فهذا الكلام الإلهي من حيث مضمونه هدىً للناس وضمان استقامتهم، ومنبع إرشاد الأنبياء والمرشدين من حيث أسلوب الخطاب، لذا يسددون نظرهم فيه ويستلهمون منه العلم والمعرفة.

إنه لحقيقة واقعة أن القرآن يخاطب مستويات مختلفة، ذلك لأنه كلام الله الذي خلق الإنسان وأنشأه بجميع مظاهره المختلفة؛ فالألوف من العلماء الأعلام قد بينوا اختلاف مستوى فهم وتمايز بعضهم عن بعض لدى طرح ملاحظاتهم وفكرهم حول القرآن. وحتى في خير القرون، كان الأمر أيضاً على هذا النمط، بمعنى أن فهم الصحابة الكرام ﷺ للقرآن وإدراكهم له لم يكن كله بمستوى واحد. واختلاف المستويات هذه لا يحجب الاستفادة من القرآن.

تاملوا أن بدوياً يأتي -في عهد الرسول ﷺ- ويستمع إلى القرآن، ويستفيد منه، وفي الوقت نفسه يستفيد منه شعراء أعلام عُلّقت قصائدهم

على جدار الكعبة، ولبيد واحد منهم، وهو الذي لم يقرض شعراً بعد سماعه القرآن. والخنساء عملاقة الشعراء في ذلك العصر أصبحت لا تترنم إلاّ بالقرآن. نعم هؤلاء كانوا مخاطبي القرآن وينـــزل إلى عقولهم وقلوبهم زلالاً. وقد أصبح أفذاذ العقلاء من مخاطبيه حيث تتلمذوا عليه من أمثال إبن سينا، وإبن رشد، والفارابي، والإمام الغزالي، وفخر الدين الرازين، وكذا أبو حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام مالك، ومن لا يمكن حصر أسمائهم. بمعنى أن القرآن كان يخاطبهم أيضاً بالأسلوب نفسه، أي بمستواهم. فلقد خاطب القرآن وفق إدراك الإنسان آخذاً بنظر الاعتبار مستواه الفكري. إن هذا الجانب من القرآن عجيب إلى حد أن كل من يستمع إليه بقلب شهيد يعتقد أنه هو المقصود الوحيد في الخطاب. وإن علماء عباقرة بزّوا في ميادين العلم والتقنية التي تسجل يومياً خطوات واسعة متقدمة، حتى غدت موضع انبهار العقول. فهؤلاء العلماء يجدون أفضل من يحثهم ويعينهم على تنمية ما أودعه الله سبحانه فيهم من قابليات كامنة، وفي أثناء اكتساباتهم في ممارساتهم القوانين الفطرية التي وضعها الله سبحانه أيضاً في الكون، هو الكلام الأزلي للخالق الكريم، وهو القرآن الكريم.

نعم، إن ألوفاً من أرباب العلم -رغم اختلاف مستوياتهم- ينهلون من زلال القرآن الكريم ويتفيأون بظلاله. فالكيمائي يستطيع أن يسمع القرآن كأنه يخاطبه وحده. أهو وحده هكذا؟ بل والفيزيائي أيضاً والفلكي أيضاً وكذا البيولوجي حتى الرياضي والهندسي، كل منهم يستطيع أن يستمع للقرآن وكأنه يخاطبه وحده. والزراعي يعتقد أن القرآن يبحث من البداية إلى النهاية عن الزراعة. وبالنسبة لطبيب ماهر يجد القرآن كمركز صحي نوراني رائق، يتكلم وينور ويهدي ويفتح آفاقاً جديدة للأمراض ويقوم بضمادهم أكمل من أي مركز دراسات وأبحاث. ويمكن إيراد الكلام نفسه لفروع العلم الأخرى. بمعنى أن الفلاح الذي يحرث الأرض في القرية والعالم الذي يفتح آفاق السموات بمجرد لمسه زراً صغيراً، هما من مخاطبي القرآن معاً.

فهذا القرآن العظيم الذي يغور في أعماق الأعماق يعلّمنا الدروس وفق أحوال وظروف كل إنسان. مع أنه يبحث عن كل علم من العلوم بأسلوب مقتضب فليس هو موسوعة علمية قط؛ لأن هدفه الوحيد هو الإنسان، ليأخذ بيده ويُصعده إلى السماء ومن هناك إلى سمو الأبدية ورفعتها. وهو في أثناء عمله هذا يعلّم أصول الإرشاد أيضاً. فالمرشد أو المبلّغ عندما يرى هذه الألوان المختلفة من الخطابات للقرآن ويعيش بها حياته، لا شك أنه يضع حالة المخاطب ومستواه نصب عينه دائماً ويجعل كلامه وفق ذلك، ومع أن هذا يتطلب جهداً منه إلاّ أنه مفيد جداً بل ضروري أيضاً.

فالذين اعتادوا أن يستعملوا الجمل المبهمة والمغلقة والمحمّلة بالتعابير الفلسفية لأجل إظهار الوقار والفخامة في كلامهم، على خطأ عظيم؛ لأن المهم في الإرشاد هو حسن فهم المخاطبين للبلاغ، وهذا يقتضي أن يكون البلاغ واضحاً بيّناً دون إشكال مهما أمكن، فالخطاب لا بد أن يكون بأسلوب يفهمه كل مستوى من المستويات بكل سهولة ويسر.

فالشباب في الوقت الحاضر، غريب عليهم التعابير والاصطلاحات الدينية، فمن الضروري التكلم معهم بلغة يفهمونها. ويمكن أن نشبه هذا بكلامنا مع الأطفال، فكما أننا نساير خطوات طفل في الثالثة من عمره وقد أخذنا بيده، ونماشي كلامه ونضحك مثله ونراعي حالاته كلها، كذلك من الضروري أن نأخذ بنظر الاعتبار مستوى فهم المخاطبين في الإرشاد، فالكلام المفخم تجاه الأطفال، لا يثير فيهم إلاّ الضحك من دون أن يضيف شيئاً إلى جعبة معلوماتهم.

فعندما نشرح الإسلام لجيلنا الحاضر، فلابد لنا من الاقتداء بأسلوب تبليغ الرسول ﷺ وإرشـــاده وليس إلى الأسلوب الفلسفي لبرجسون وباسكال وأفلاطون وديكارت. فالرســـول ﷺ كان يخاطب دوماً بمستوى فهم الآخرين، فكان خطابه يسع جميع الناس، كل في موضعه، فكالطفل مع

الطفل وكالشاب مع الشباب وكالعجوز مع العجوز. فهذا الأسلوب وهذه الأخلاق الإلهية هو أسلوب الأنبياء وأخلاقهم. ويروى عن سيد الأنبياء ﷺ أنه قال: "إنّا معاشرَ الأنبياء أُمرْنا أن نُكلّم الناسَ على قَدر عُقُولهم"[1]. وفي حديث آخر: "أَنــزلُوا الناسَ مَنازِلَهم"[2] وهذا يبين قاعدة جليلة في الإرشاد لا يمكن تجاوزها.

## ٧- نظرة إلى علاقة الإيمان – التبليغ – العمل

### أ- التبليغ والحياة

إن أهم قاعدة من قواعد التبليغ أن المبلّغ يحيا بما يبلّغ، ويبلّغ بما يحيا، ذلك لأنه على الصراط السوي للمؤمن الحقيقي. والمؤمن الحقيقي يعني مَن بلغ إلى تكامل الظاهر والباطن. فلا تخالف بين الظاهر والباطن في هذا المؤمن. أما الحياة الازدواجية فهي صفة النفاق، ويتنــزه المبلّغ الصادق من مثل هذه الأخلاق المذمومة، وما ينبغي له، ولأن صفة الإيمان قد أراه أفق الأخلاق الرفيعة، بأن ليس له إلا تبليغ ما يحيا به في كل زمان و مكان.

ومن جهة أخرى يعلم المبلّغ أن النصائح والإرشادات التي لا تتحول إلى حياة معيشة، لا تورث نتيجة إيجابية في وجدان الآخرين، إذ الأقوال والأحوال الخالية من الإخلاص لا يلطف الله سبحانه بها باليمن والبركة. أما ما نشاهده من نجاحات في بعض أعمال غير المخلصين أو شبه المخلصين، فهذا نابع من عدم وجود البديل، زيادة على أنها عابرة، أو أن تحقق مثل هذه الأحوال أحياناً نابع من عدم وجود من هو أفضل إخلاصاً في حينه، أو من عدم تمكن المخلصين الصادقين من تكوين مركز جاذبية بعدُ. ومتى ما حان

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١ /٢٢٥-٢٢٦.

(٢) أبو داود، الأدب ٢٠؛ مسلم، المقدمة.

وقت انتهاء غير المخلصين يحكم عليهم القدر به. وقد جرى هذا القانون الإلهي منذ القدم إلى يومنا الحاضر؛ لذا لا يخدعنّ المؤمنين وأهل الفراسة النجاح الجزئي والعابر لغير المخلصين أو ناقصي الإخلاص.

ويمكن أن يكون مثالاً لهذا بعض النجاح الذي أحرزته الشيوعية والرأسمالية، فكلا النظامين ظهرا في فترة واحدة، وظهر كل منهما بديلاً عن الآخر، ولعدم وجود تيار أفضل وأكثر إخلاصاً في تلك الفترة التي ظهرت فيها هذه التيارات النفاقية المغفّلة، نمت وانتشرت. ويمكن أن نقول إن المخلصين المتيقظين أخذوا يتقصون الحوادث عن كثب، فلا يباع بعد الآن في سوق العالم إلاّ متاع من كان مخلصاً، فهم الذين سيجدون زبائن لهم. فلقد حان أن يطرد غير المخلصين من هذا السوق الإلهي. فالشيوعية الباطلة المحكوم عليها بالزوال منذ ولادتها، قد أخرجت وطردت من سوق الحقيقة والإخلاص وأُلقيت كنفاية على جانب. ولعله قد آن أوان دعوة أهل الإسلام أن تكون البديل الوحيد، كما يبدو أمام النظر.

إن تبليغ ما يحيا به المبلّغ، أو بتعبير آخر تبليغ ما يمثله، إنما يحصل بمحاسبة المرء نفسه محاسبة مستمرة، ومراقبة وجدانه لذاته. ولم يشاهد أن نجا من الحياة الازدواجية مَن يعيش للجسد ولم يتكامل بعدُ؛ فحاملو هذه الأرواح لا تنم أوضاعهم عن حقيقتهم ولم يصبحوا قط كما يتصرفون ويسلكون، وكل ما يعرضونه في المجتمع من احترام ونضوج واستقرار هي أمور متكلفة، شكلية، صورية، فما قوبلوا من لدن الآخرين إلاّ بالاستثقال والكراهية. فهؤلاء عندما ينفردون بأنفسهم مهملون غير جادين، وهذا دليل عدم النضوج وعدم القدرة والكفاية، وإزالة هذه الأمور مرتبطة باعتقاد جازم وتوكل كامل وانقياد جاد.

نعم، المبلّغ يدقق في هذا الأمر، فكما هو أمام الناس يكون كذلك في انفراده، ويسعى لتكون جميع أحواله وتصرفاته وسلوكه الخفية والظاهرة

خالصة صادقة فيظهر من الأطوار الفردية والاجتماعية ما لا يوقعه قطعاً في ورطة التناقض. إن ليالي المبلّغ جلية كنهاره، ونهاره ساطع كالشمس، وإذا ما ارتكب خطأ -ولو صغيراً- لغفلة طارئة انكفأ على نفسه وحاسبها حساباً عسيراً حتى تئن من ثقل حسابه. فيخجل من أن يتكلم عن الصلاة نهاراً وقد فاته التهجد ولم يتنور ليله،و يستفرغُ الدمع لإزالة لوثة تعلقت بعينه من نظر حرام، واللقمة التي فيها حرام أو شبه حرام تصبح غصصاً في حلقه ومغصاً في بطنه، وانحراف طفيف في روحه يجعله يستشعر به كلهيب جهنم.

نعم، إن الأفكار التي لا تجد مجالاً لتطبيقها على صاحبها، لا تجد حسن القبول المطلوب لدى الناس مهما كانت جاذبة وضرورية للحياة؛ إذ الكلمات لم تنطلق من وجدان القائل، ومن المحال طلب استقرار فكر لم يستقر بعدُ في وجدان صاحبه.

## بـــ- التبليغ والمعيار (كمحور للحياة)

الإرشاد والتبليغ في المجتمع الإسلامي ليس وظيفة فحسب، بل هو بمثابة معيار ومقياس لكل شيء، حيث يقيس أفراد ذلك المجتمع جميع شؤونهم وفق ذلك المقياس وينظمون أوقات يومهم وفقه، ويمضون لياليهم تحت أنّات هذه المسؤولية. لذا لا يكون معياراً مجيء شخص إلى المسجد أو عودته من فريضة الحج، أو مشاركته في احتفالات المولد النبوي وما شابه، بل المبلّغ الجيد يتجنب كلياً من كل ما يومئ إلى تحويل الدعوة إلى مراسيم وطقوس وشكليات، تلك التي تفني روح التبليغ والإرشاد. ولكن ربما تكون هذه الأمور والأساليب مسلية لبعضهم إلاّ أنها بعيدة كل البعد من أن تكون معياراً في المجتمع. والحقيقة أن في مقدمة الأسباب لِتردي المجتمع وسقوطه وجَعْلِ قوّته المادية والمعنوية عقيمة بائرة هو عدم القيام بـــ"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بشعور كامل، وبخطة تامة.

علينا أن نعتقد أن هذه الوظيفة السامية في يومنا هذا دَين فطري في عنق كل فرد من أفراد المجتمع، لأن دوامات الفتن ومستنقعاتها المترشحة من ثغرات البشرية، تجرف الأفراد أولاً ثم المجتمعات المتكونة منهم، وترميهم في أودية الهلاك السحيقة.

نعم، نؤكد تأكيداً جازماً أن هذا الأمر أمر إيماني قبل كل شيء، ولم يزل الذين نصروا هذا الدين إلى الوقت الحاضر وتبنّوا قضيته هم الأقوياء إيماناً، وهكذا كان الأمر وهو كذلك اليوم نفسه، وسيكون غداً أيضاً على المنوال نفسه. إن ما قام به ثلة مخلصة قوية الإيمان من حركة الإرشاد والتبليغ في مجتمع كبير، إذا بها قد لاقت في وقت قصير قبول وجدان جم غفير من الناس وتكون همهم الأول، ولا يمكن إيضاح هذا إلاّ أن الصفة المميزة لهذه الحركة هي بُعدها عن الأمور الشكلية والمراسيم.

والحركة البعيدة عن المعاناة والمقاساة لا تنجو من شِباك الشكليات وأسر المراسيم. والحقيقة أن الحركات التي قامت على المراسيم والشكليات، لا يخطر ببال أحدهم السجن، الدموع، المعاناة الفكرية، وبالتالي تخلو من الإخلاص والمحبة والاحتضان.

الخلاصة: أن المرشد ينظم كل حركاته وتصرفاته وسلوكه وفق حياته الإرشادية، فإذا ما أراد الذهاب إلى مكان يذهب إليه متفكراً بالإرشاد. أي يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد متفكراً بالإرشاد والتبليغ. فلا مكان للتنـــزه الخاص في حياته، بل يسعى لتنسيق حاجاته الفطرية وفق استقامة دعوته السامية. إذ يعيش تحت وطأة يوم يُسأل عن عدد أنفاسه. وهذا هو سبيل الأنبياء والصديقين والأولياء والشهداء؛ فلقد بلّغوا ما كانوا يعيشونه، وعاشوا ما بلّغوه، بخلاف المنافقين الذين يبلّغون ما لم يفعلوه، ولم يعيروا سمعاً لما بلّغوه، فتراهم يغوصون كل يوم في دوامة طريق غير مستقيم، فضلوا وأضلوا من تبعهم، فهلكوا وأهلكوا. "أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام وقال

له: عِظْ نفسَك فإن اتعظتْ فعِظ الناس، وإلاّ فاسْتحِ منّي أن تعِظ الناسَ".[1]

وفي الحقيقة، إن هذا الخطاب ليس موجهاً إلى سيدنا عيسى عليه السلام كنبي وإنما كداعية لله سبحانه وهو في مقام الإرشاد، ولهذا يرد الخطاب: يا عيسى، أي إن الخطاب موجه إلى النبي وإلى كل من يتولى أمر الإرشاد والنصيحة، بأن يعيش ويحيا شعورياً بما يبلّغ وينصح كي يؤثر في غيره. والقرآن الكريم يوضح هذه المسألة بأوضح بيان في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤) فالكتاب يوصي أول ما يوصي هو أن تبدؤوا أنفسكم بل يفضلها بالأسبقية.. أفلا تعقلون هذا وأنتم تتلون الآيات؟

لا شك أن هذه الآية الكريمة تهديد واضح لبني إسرائيل، وتنبيه للمسلمين في الوقت نفسه، إذ تقول لهم: إياكم أن تقولوا ما لا تفعلونه. لأن عدم القيام بما يقوله المبلّغ صفة نفاقية وخداع كما ذكرنا. وقد شهدنا كثيراً في فترة الانحطاط عدم جدوى كلام من سلك هذا السلوك بل فَقَد ثقة الأمة به.

كثيرون جداً من يمثلون الجانب الفكري للإسلام، أو يشرحونه بأسلوب أكاديمي، حتى إنه ينتج أفكاراً في هذا الميدان، ولكن لأنهم لا يحيون بما يقولون، أصبحوا أثراً بعد عين، ذلك لأن سلوكهم ما كان مستقيماً، وكلامهم ما كان نابعاً من صميم إيمانهم، علماً أنهم كانوا يشرحون "الصراط المستقيم" للناس ويدّعون أنهم يرشدونهم، ولكن ما أن هبّ نسيم خفيف حتى اهتزت الأوساط، فكان ذلك كافياً لينتهوا كلياً، بل نسوا ما كانوا يقولونه للناس وكذّبوا بكل ما يقولونه وأصبحوا في صفوف الجبهة المعادية مدافعين عنها بقوة. وفي النهاية هلكوا وانخرطوا مع المعدومين، ولكن يا للأسف مسحوا حضارة كاملة من الوجود.

---

(١) الرسالة للإمام القشيري، ٢١٦؛ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٧٨/١.

## جـ- التبليغ والمعاناة

إنه لقدر إلهيّ أن تترافق وتتداخل وظيفة التبليغ والمعاناة معاً بلا انفكاك؛ إذ الأشياء التي تحصل بصعوبة وتعب تحظى بالاهتمام والعناية والمحافظة، بينما الثروات التي حُصِلَ عليها بدون جهد أو نصب لا يستغرق استهلاكها سوى دقائق. ولاسيما إن كان الأمر يتعلق بتعريف الناس بالله، فإن هدر هذا الأمر يعني إنهاء أهم أساس لغاية وجود الإنسان وإنهاء ضمان بقائه. وهذا يعني مباشرة عدم جدوى وجود الإنسان على الأرض. لذا فالإنسان مضطر لإدراك هذه الوظيفة السامية كي يجعل لوجوده جدوى ومغزى.

في الأمس نقل ناس من سجن إلى آخر، بل غدت سجون البلاد بيوتهم ومساكنهم، إذ لم يبق نوع من عذاب إلا وذاقوه، ولم يبق شكل من أشكال الإهانة والتحقير إلاوشاهدوه، ومنهم من أُخذ من أهله إلى التحقيق ولم يعُد إليهم.. بل كثيرون كانوا يودّعون أهلهم صباحاً بلا أمل بالعودة.. هؤلاء جميعاً كابدوا ما كابدوا من أجل استمرارية الكفاح.. وفي فترة قصيرة جداً إذا بالرحمة الإلهية الواسعة تسعف أنات ثلة من الناس، وتثمر تلك الجهود المضنية الخالصة الطاهرة ثماراً يانعة نتفيأ بظلال أغصانها بفضل الله..

ألا لا يحق لأحد كائناً مَن كان أن يهدر هذه الثروة المقدسة؟ فالمؤمنون بجدوى هذه الخدمة التي بلغت مستوى معيناً، سيتولونها وينصرونها بنفس الأحاسيس والمشاعر التي عجنت بآهات وحسرات المكابدين.

لقد ذكرنا أن هذا الأمر أمر إيماني، فمن ينصر الإيمان عليه أن يعزم عزيمة جادة على إدامة حياة الإيمان، وليكن عزمه -في الأقل- كعزمه على إدارة بيته وأهله، أي يدافع عن دعوته بمثل ما يدافع عنهم، وبخلاف هذا لا ينجو من عاقبة بني إسرائيل.

والمبلّغ والمرشد مترقّب دائماً لمواجهة المصاعب والمتاعب، ويلقّن نفسه بهذا باستمرار، ويعتقد يقيناً أنه لا يفلح ما لم يصبه ما أصاب الذين قبله في

دعوتهم؛ أي يبتغي العزيمة دائماً ويتهيأ لتحمل المشقة، وإن قوبل باليسر يشكر ربه الذي أنعم عليه بهذا ويستمر في دعوته.

المؤمن مخلص صادق، أي يفعل ما يقول، أو لا يقول إلاّ ما فعله، وخلافه هو الكاذب والمنافق كما يصفه القرآن الكريم؛ إن حياة من يتكلم عن الدين والإيمان والقرآن ويشرح الإسلام كلما سنحت الفرصة، لا بد أن تكون وفق ما يبلّغه، إذ لا مكان لإثم في حياته، أو يعدّ الإثم منبع قلق واضطراب له. ولوارتكب ذنباً يشعر بعذابه ووخزاته الأليمة في أعماقه طوال حياته، فلا يستقر ذنب طويلاً في روحه. إن المؤمن لا ينظر نظرة حرام، ولا يمدّ يده إلى حرام، ولا يمشي في موضع فيه حرام. ليله كنهاره مضيء مشرق، سجادته عاشقة لسجداته في جوف الليل. لم يُسمع منه أنه قال يوماً فاتتني صلاة الفجر، وإن حدث ذلك خارج طوقه يقضى يومه بالحسرات والزفرات حتى تنعكس على سلوكه طوال ذلك اليوم، وينكفئ على نفسه من الندم.

## د- التبليغ والنفاق

إن الشعور بالمراقبة والمحاسبة عامل حض دائمي للمبلّغ، فالمرشد في مراقبة مستديمة لنفسه، فيراقب مشاعره وتصوراته، ويجهد أن يستقر في نفسه ما يبلغه للآخرين أولاً و متلبسا به. وفي الوقت نفسه يتجنب ويتحرز تبليغ الآخرين أو نصحهم بمسائل لم يحاسب نفسه عليها بعدُ. وهذا التجنب لا يمنعه التبليغ بل يحض عليه ويدفعه إلى الإرشاد أكثر. إذ التخوف من أن يقع في النفاق أو أن يتشبه بالمنافقين يدفعه دائماً إلى الإخلاص.

والرسول ﷺ يبين في حديث مخيف مروّع من اتخذ الإرشاد والنصح لفظاً إذ يقول: "إنّ أَخْوَف ما أَخافُ على أمّتي كلُّ منافقٍ عليمِ اللّسانِ".[1]

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٤٤/١.

ولا يُتخيل من يسمع هذا البيان العزيز المنور ولا ترتعد فرائصه. حيث إن الإنسان مهما كانت منـــزلته يشعر من حين لآخر بحاجة إلى إبلاغ شيء إلى الآخرين، فهذا الحديث الشريف وأمثاله يحول دون تردي مستوى الإرشاد والتبليغ. وعلى الرغم مما في هذه المسألة من عناصر تهديد كثيرة، فإن مصادفة المترددين الذين يجولون في وديان الضلالة مستمرة. فهذا النمط من الناس ينتجون الكلام دون انقطاع في شاشات التلفزيون وأعمدة الصحف والمجلات ويتكلمون عن الدين والإيمان والقرآن بينما جباههم ملوثة لم تر السجود، خاوية قلوبهم من الإخلاص، و مشوبة بالشؤم خالية من الصدق. فهذه الأرواح البائسة لا تعلم أن تسعاً وتسعين بالمائة من الدين ذات علاقة بالفرد نفسه، فإذا لم يراع الفرد هذه الأمور يُعد ثرثاراً مهذاراً أو مجادلاً عنيفاً.

عندما يعدد القرآن الكريم أوصاف المرشد الأساسية لا يهمل أن يذكّر بخصائص المنافقين، فإن سرد ما يبتعد عنه المرشد ويتجنبه يحرز أهمية بمثل أهمية ما يعمله المرشد ويدافع عنه. فيستعمل القرآن الكريم عند وصفه المنافقين أسلوباً يُنَفّر المؤمنين عنه.

والقرآن في هذا المجال يحشد تحشيدات هائلة حتى يذكر خطرات قلوبهم وخباياها، وهواجسهم الداخلية وخفاياها، بـــل حتى نياتهم ويعرضها أمام الأنظار، بل أحياناً يعرّف قامتهم وطبائعهم، فتأملوا في هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمْ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(المنافقون:٤). وكما نرى من الآيـــة الكريمة أنهم عُرّفوا بخطوط النفاق العامة تعريفاً واضحاً بيّنا لا يقبل الشك. أي إن القرآن يعرضهم عرضاً واضحاً لا أوضح منه لا يفلت منه شيء... في أجسامهم وحركاتهم وسماتهم وكلامهم وسلوكهم وأطوارهم.. فهم قادرون على جمع جمّ غفير من الناس وجعلهم يتبعونهم كالقطعان بخطبهم الساحرة وبما أوتوا من لباقة وفصاحة، وكأنهم خشب مسندة. وبتعبير واضح إنهم أعداء. والقرآن الكريم

يذكر هذا لكل عليم اللسان في الماضي والحاضر ممن يتمشدقون باسم الدين والأمة والوطن من دون أن يؤدوا شيئاً يُذكر. فالقرآن يخاطب أمثال هؤلاء بأسلوب تهديد جاد: لا تفسحوا مجالاً للباطل في صفوفكم فلا تثيروا النقائض والمعاكسات في صفوفكم.

نعم، إن هذه الأطوار التي ذكرت علامةً للنفاق، يرتعد منه ويرتعش كل من يعمل لأجل الحق وباسمه. فهي من النقائض التي يمكن أن يقع فيها كل إنسان كل آن. ولهذا فالذين يعملون في ميدان الإرشاد عليهم أن يكونوا حساسين دقيقين جداً.

## هـ- التبليغ والارتباط بالله

إن أقوال وأحوال المرشد تكون مؤثرة بقدر إخلاصه. فإن انعدم الإخلاص فلا تأثير لفخامة الكلام واحتشامه. حتى يصح أن نقول: إن الاهتداء ليس له علاقة قوية بالتبليغ والإفهام. لأنه بيد الله سبحانه. فإن لم يرد الله الهداية لشخص لا يكون أحد وسيلة لها قط. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦). لذا فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي له مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهداية خزينة عظيمة فمفتاحها أيضاً بيده بلا شك. فالألزم إذاً للمرشد والمبلّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كل شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام.

ولقد أتى ورحل من هذه الديار ذوو عقول جبارة، أتوا ورحلوا، وعلى الرغم من مستواهم الرفيع في البيان والخطابة لم يتمكنوا من جمع بضعة أشخاص على أمر جاد، فلم يكونوا مخلصين في بعض نواحيهم، حيث كانوا يتصورون أن كل شيء من عندهم ويربطون كل نتيجة بأنفسهم. فيهم دهاة في البيان، كانوا يستطيعون أن يجعلوا ألوفاً يسيرون وراءهم ولكن لم يحصلوا على شيء لتلوثهم بالنفاق، ففيهم من يتكلم عن الصلاة وهو لا يصلي، وفيهم من يتناول شرح

حسن الإسلام ولا يعيش به، لسانهم يغرد كالبلبل وقلوبهم تنبض بالحقد والكراهية والأغراض الشخصية. ومن هنا عدّ القرآن النفاق في الدرك الأسفل من النار. ولهذا فإن على كل مبلّغ مخلص أن يسجد لله خمسين مرة ويلجأ إليه من احتمال دخول النفاق فيه ويتوسل إليه ليرزقه الإخلاص.

نعم، الهداية بيد الله، فكما أنه تعالى هو الذي يعطى الإنسان قوة البدن، فهو كذلك يمنح القلب الإخلاص. لذا لا يحق للمبلغ أن يدّعي تملك أيٍّ منهما ولا يقول: أنا الذي عملت، أنا الذي فعلت!.

إن الصورة المثالية التي رسمها القرآن للمؤمن أن الإيمان وحدة القول والعمل وتكاملهما. والمحافظة على هذا التوازن سبب مهم للتأثير. وقد يتوهم أنه "لو لم يعمل المجاهد و لم يتجنب المعاصي، كفاه تفهيم الصواب والشيء الجميل" ولكن هذا الكلام من همسات الشيطان وهمهمته ولا علاقة له قط بالروح المحمدية.

لقد ظهر في أيامنا هذه عدد غفير من العقليات والأفكار الخيالية المدّعية والحداثية، فضلاً عن أنهم يملكون من قوة الذكاء الخداعي ما يظهرون الأسود أبيض يشرحون الإسلام بمنة ويسرة لكن ليس وراءهم حتى حفنة من المؤمنين المخلصين، لأنهم ليسوا مخلصين صادقين؛ يتكلمون كثيراً، ولكن لم يألفوا الإيمان والإسلام في نفوسهم مثلما ألفوا الكلام، وحياتهم الدنيوية ومعيشتهم منصبغة بباطل النظام الغربي لا بحسناته. فعندما يريدون أن يرشدوا العوام والمجتمعات يجعلوهم غرباء، وهم بدورهم يصبحون كأجانب إزاء مجتمعهم.

والسبب الأهم في هذه المفارقات هو الجهل بالإسلام، وعدم القيام بحقه بعد القراءة والدرس والتحصيل. أو بمعنى آخر إن سلوكهم هذا مخالفة ضمنية لما يدّعون النضال في سبيله، واستهانة بما يزعمون أنهم يكافحون لأجله.

انظروا إلى القرآن الكريم، كيف يستنطق سيدنا شعيباً عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(هود:٨٨)، أي أنني لا أفكر فيما انتفع منه

فيما أنهاكم عنه، أي عندما أقول: إن الربا حرام فلا أفكر بأخذ الربا قط، وعندما أقول الرشوة حرام فلا يرد ببالي أخذ الرشوة قط. فعندما بلّغ سيدنا شعيب عليه السلام قومه كان هذا ضمان صدقه. أليس هذا هو شهادة صدق كل نبي؟ هذه الملاحظات لا يمكن أن يهملها من يتصدى لوظيفة الإرشاد.

فسيدنا شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى الله ويرشدنا أيضاً إلى أمور في الإرشاد. فهو يذكر أسس الدعوة. والقرآن الكريم يوضح ذلك مرة أخرى ويضعها أمامنا.

والرسول الأعظم ﷺ، يعمل أضعاف أضعاف ما يبلّغ ويقول. فهو أعبد الناس طراً، ومرتبة النبوة لا تفوقها مرتبة قط ولا يقاس معها شيء. فعند ما عرج به ﷺ إلى السموات العلى عرج بجناح العبدية لله، أي سبقت عبديته نبوته، فأصبحت مقدمة لها. والقرآن الكريم يأمره بهذا في قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩). وهو ﷺ يأتمر بالأمر الرباني ولا يحيد عنه قط وهكذاكان طوال حياته المباركة. فلم يغادر العبدية لحظة واحدة. فكان كلامه يستقر في الأذهان ويقرّ في الوجدان. ذلك لأنه يقول ما يفعل ويحيا به، حتى في أشد حالاته، ومثال ذلك ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها لما سئلت: "أخْبِرينا بأعْجَبِ شَيءٍ رَأيْتِه من رَسول الله ﷺ. -قال: فسكتت ثم- قالَتْ: لَمّا كان لَيلَةٌ من الليالي قال: يا عائشةَ ذَريني أتَعبّدُ الليلةَ لرَبّي. قلتُ: والله إني لأُحبّ قُرْبَكَ وأُحبُّ ما سَرَّكَ، قالت: فقامَ فتطَهّر ثمّ قامَ يُصَلّي، قالت: فلَمْ يَزَلْ يَبْكي حتى بَلّ حِجْرَه قالت: ثم بَكى فَلَم يزل يَبْكي حتى بلّ لحيتَه، قالت: ثم بَكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرضَ. فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة".[1]

فهذا النبي العظيم والرسول الكريم بلا شك خطيب يدعو إلى الله، وأعظم جانب من جوانبه الجليلة كلها جانب عبوديته لله التي لا تجارى قط، فقد كان يرغب أن يعبد ربه في أيامه الأخيرة المليئة بالآلام والمرض كما

(١) الصحيح لابن حبان، ٢/ ٣٨٦.

ابتدأها في أول يوم وأدامها إلى ذلك اليوم. علماً أن الجلوس والقيام كان عسيراً عليه. ولقد تحمل من الآلام والمصاعب طوال حياته ما لا يتحمل غيره يوماً من أيامه.. من زوجاته الطاهرات ومن أولاده.. من أمته لأمورهم الدنيوية والأخروية، حتى وهنت قواه الجسدية.. وعلى الرغم من كل هذا لم يفتر حتى عن النوافل التي ابتدأ بها. وهذه الصلوات كانت طويلة إلى درجة كانت ركعة واحدة من بعضها قد تستغرق ساعات وساعات، فما كان يستطيع أن يؤديها قائماً فيصليها قاعداً دون أن يتركها قط.[1] يا له من جدّ في الأمور كلها. ويا له من وقار، ويا له من إخلاص ومن وفاء بالعهد.

فقد كان الرائد القدوة في أخذ الأمور بجد ووفاء حتى أتاه "اليقين". أي الموت، إلى الحشر، إلى الأبد..

وجانب مهم آخر من جوانب الإرشـــاد هو ربطه بالقرب الإلهي، والرسول ﷺ أفضل من يمثل هذا الجانب. ذلك إن لم يكن هذا الإحساس بالقرب الإلهي يعش الإنسان في فراغ، فيبقى مع أذواقه وحظوظه، فتأخذ به إلى مزالق خطرة.

فلقد كان الرسول ﷺ يؤدي وظيفة الإرشاد على أفضل وجه، وهو في قربه إلى الله دون تقصير حتى كان كثيراً ما يؤدي الصلاة والمؤتمّون يتصورون أنها لا تنتهي. وهكذا كان تضرعه ودعاؤه، وكأنّ يديه الشريفتين معلقتان بالسماء لا تريدان النـــزول بعد رفعهما للدعاء والتضرع.

وذات مرة وافق بأن ابن مسعود كان عند رسول الله ﷺ واقتدى به في إحدى صلواته النافلة فأراد أن يغتنم هذه البركة.. ولنستمع إليه مباشرة؛ يقول: "صلّيتُ مع النّبيّ ﷺ ليلة فلم يزل قائما حتّى هَمَمتُ بأمرِ سَوْءٍ قلنا: وَمَا هَمَمتَ؟ قال: هَمَمتُ أن أقعدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ".[2]

---

(١) انظر إلى: البخاري، الأذان ٥١، ٨٢.

(٢) البخاري، التهجد ٤٩؛ مسلم، المسافرون ٢٠٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٣٨٥-٣٩٦.

وهكذا فإنه ﷺ يزاول العبودية أكثر من أي أحد بكثير ثم يتكلم عنها للناس. فقد كان سبّاقاً في هذا الأمر إلى حدّ أن ابن مسعود –وهو من الرعيل الأول من الصحابة الكرام– لم يستطع أن يتحمل ركعتين من صلواته.

وكان كالشمس تميل إلى الأفول، فوضع رأسه على ركبة أمنا عائشة وهو في أيامه الأخيرة، وسدد نظره إلى الملأ الأعلى. كان تعباً جداً ومهموماً بالآخرة، حتى كان يغمى عليه أحياناً، تصف حالته هذه أمنا عائشة فتقول: "ثَقُل النبيّ ﷺ، فقال: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لي ماء في الْمِخضَب. قالت: ففعلنا فاغتَسَل فذهب لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عليه، ثُمّ أَفَاقَ. فقال ﷺ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضَعُوا لي ماء في المخضب. قالت: فقعد فَاغتَسل ثُم ذهب لِيَنُوءَ فَأُغْمي عليه ثُمّ أفاق. فقال: أَصَلَّى النّاس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله فقال: ضَعوا لي ماءً في الْمِخْضَب فقعد فاغتَسل ثُم ذهب لِيَنُوء فأُغمي عليه ثُمّ أفاق. فقال: أَصَلَّى النّاس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله".[1]

وهكذا أمضى حياته بقوله: الصلاة... الصلاة... ولقي ربه وهو يردد.. الصلاة.. الصلاة. كان يفكر دائماً بالصلاة ويحيا بها بشعور كامل. وهكذا كان قدوة حسنة وأسوة كاملة، في جميع جوانبه... كان إنساناً كاملاً حقاً، وسيداً مطاعاً، ورئيس دولة عادلا صابراً.

ومن الخصائص الجديرة بالاهتمام لمن يتصدى لوظيفة الإرشاد هو: أن لايغيب عنه الحياة المتواضعة للرسول الأعظم ﷺ، وكونه مع الصحب الكرام في كل شأن من شؤونه.

فإن اقتضى بناء مسجد فهو أول من يحمل اللبنات معهم، أو إن كان الأمر يقتضي حفر خندق تَرَهُ حاملاً للفأس يعاون أصحابه في كسر الصخور.[2]

---

(١) البخاري، الأذان ٥١؛ مسلم، الصلاة ٩.

(٢) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٣٨١/٢؛ البداية لابن كثير، ٢٥١/٣، ٩٧/٤؛ المغازي للواقدي، ٤٤٦/٢.

نعم، إنه كان كأحدٍ من الناس. ويحيا بهذا الكلام عملياً. وإذا دعا الناس إلى الزهد في الدنيا فهو أسبقهم في الزهد، حتى إنه ما كان يوقد في بيته نار حتى للحساء شهراً تلو الآخر. وما كان يجد في بيته ما يستريح عليه من فراش.[1]

كان وَقَّافاً عند الحرام، فقد انتفض مرة من مكانه عندما شاهد أن الحسن ﷺ قد وضع تمرة من الصدقة في فمه، وأسرع في إخراجها من فمه.[2] علماً أن الحسن ﷺ في ذلك الوقت كان ابن خمس أو ست سنوات. إلاّ أن الصدقة حرام على الرسول ﷺ ومن يأتي من نسله.

في ليلة من الليالي وجد ﷺ "تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم ينم تلك الليلة. فقال بعض نسائه: يا رسول الله أَرِقْتَ البارحة. قال: إنّي وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتُها وكَان عندنا تَمْر من تمر الصّدقة فخَشيتُ أن تكون منه"[3].. والحال أن تلك التمرة كان من ماله الخاص، لأنه كان يضع تمر الصدقة في موضع مخصص.

فهذا مثال للحساسية والدقة في تجنب الحرام، فلا بد أن يتصف به المؤمن الكامل والمرشد الكامل.

## و- التبليغ والدعاء

بعد كل ما ذكرناه سابقاً فللرسول ﷺ جانب الدعاء أيضاً. فلا نغادر هذا الفصل دون الكلام حوله. نعم إنه ﷺ يوصى أصحابه الكرام بل أمته قاطبة أن يتكاملوا بالدعاء وينبهُهم بآيات كريمة أمثال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٧) فكان في دعاء دائم، ففي نومه ويقظته، وفي مأكله ومشربه، وفي ملبسه ونـــزعه الثياب، بل حتى دخوله الخلاء والوضوء.. كثير الدعاء إلى حد لا يجاريه أحد في كثرة الدعاء في الدنيا

---

(١) انظر إلى: البخاري، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨؛ أبو داود، اللباس ٤٢.

(٢) انظر إلى: البخاري، الزكاة ٦٠؛ مسلم، الزكاة ١٦١.

(٣) المسند للإمام أحمد، ١٩٣/٢.

كلها. نعم لا أحد غيره ﷺ يذكر الله في كل خطوة يخطوها ويلتجئ إليه في كل شأن من شؤونه ويبصر في كل شيء رضاه تعالى.

فهذه الحياة المليئة بالعبر والطافحة بالعظات لفتت أنظار العالم الإسلامي أجمع، وبجميع مستوياته فهو يتابع باهتمام بالغ وبارتباط وثيق منذ أربعة عشر عصراً. فلم يحظ أحد غيره ﷺ على وجه الأرض بهذه العلاقة القوية.

هذه الحياة المهيبة كأنها تصور جميعها بالأفلام، بدءاً من مأكله ومشربه ومن ملبسة إلى قيامه ومن جلوسه ومن كلامه إلى أسلوبه في الخطاب ومن مواقفه السياسية إلى عقده المعاهدات بين الدول.. هذه الحياة العظيمة قيدت في ذاكرة الجماهير وضمن الشعور الاجتماعي حتى أصبحت صمام أمان للمجتمعات المؤمنة. فليس في هذه الحياة فراغ أو جزء مبتوت الصلة بالله قط. فكل طور من أطواره ﷺ وكل حال من أحواله مضى مرتبطاً بالله سبحانه وفي عبادة وطاعة لله تعالى حتى في مأكله ومشربه ومنامه ويقظته.. ولأجل هذا انطبعت جميع أحاديثه وأقواله وأطواره وأحواله في حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. وإن الدقة الشديدة لدى الصحابة الكرام في إدامة الحياة الدينية نابعة من هذه الدقة الشديدة التي شاهدوها لدى الرسول الكريم ﷺ.

حتى أنه عندما نـــزلت الآية الكريمة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه﴾(آل عمران:١٠٢) انقطع الصحابة الكرام عن الأكل والشرب، إذ كيف كان يمكن التقوى من الله حق تقاته بغير هذا. زيادة على ذلك ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ التي تعقب الآية تشير إلى أن الموت مسلماً عسير إن لم يكن على تقوى من الله حق تقاته. فاشتد على الصحابة العمل فقاموا في بيوتهم منقطعين للعبادة والصلاة حتى تورمت أقدامهم وتقرحت جباههم ولم يغادروها إلاّ لصلاة الجماعة في المسجد. وبعد مرور بضع عشرة يوماً إذا هم هزال ضعاف حتى أشرفوا على الموت. والرسول ﷺ على علم بهذا الوضع،

ولكن ما كان يعلم السر في هذا التحول الآني الذي حصل فيهم، وهم بدورهم لم يبوحوا بما تكن صدورهم خشية مخالفة أمره تعالى. وبعد ذلك نـــزلت الآية الكريمة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦) فتنفس الصحابة الكرام الصعداء ووجدوا شيئاً من الراحة.[1]

نعم هكذا كان الصحابة الكرام دقيقين إلى هذا الحد أمام الآيات الكريمة، وكانوا لا يجاوزونها حتى يحيوها حياة حقيقية. ذلك لأن رائدهم ﷺ كان على هذا الأمر، وفي الحقيقة دامت هذه الحالة وبهذا العمق بضعة عصور أخرى.

وهنا أمر لا بد أن يفهم جيداً: وهو أنه لا تعدّ وظيفة التبليغ قد أعطيت حقها إلاّ إذا أُخذ طرز فهم الإسلام والعيش به بنظر الاعتبار. أي يصبح الإسلام حياة معيشة بأصغر تفرعاته كما هو لدى الصحابة الكرام بكل دقة وأمان.

نعم إن وظيفة التبليغ تحوز خصوصية معينة، فالأفضل أن تؤخذ موضوعاً مستقلاً. إذ لا تفهم إلاّ ضمن الحياة ومعها في معايشة تامة، ولا تبنى على الافتراضات والتصورات الخيالية. هذا وإن مرشدين نورانيين يرشدوننا بحياتهم المعيشة منذ أربعة عشر قرناً. فكانت حياتهم كلها وجميع أطوارهم على هذا المنوال. فنالوا التوفيق من الرب الجليل لما تمتعوا به من صدق وإخلاص. ونحن إن كنا نريد الفلاح مثلهم فليس أمامنا سبيل إلاّ اتباع أثرهم ومتابعتهم في حياتهم المعيشة.

فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد أصيب بطعنة وهو قائم يصلي، فغشي عليه، وعجز عن الأكل والشرب، ولما سأله الصحابي الذي كان يعاونه في أموره: ألا تأكل شيئاً، أومأ بعينه: كلا. بمعنى ما كان ليستطيع أن يفتح فمه ليتكلم. ولكن ما إن قرب وقت الصلاة وقرّب الصحابي فمه إلى أذن سيدنا عمر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٦/٨.

وهمس: أن حان وقت الصلاة حتى اعتدل عمر في مجلسه وقال: صلاتي.. صلاتي.. نعم هكذا شاهد من رسول الله ﷺ.

نعم إن ذلك الرجل العظيم لفظ أنفاسه الأخيرة بقوله: الصلاة الصلاة بعد أن طُعن في الصلاة.[1] ومثال آخر من أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها "أنّها ذَكَرت النّار فَبَكت. فقال رسول الله ﷺ: مَا يُبكيك؟ قالت: ذكرتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ".[2] لماذا؟ لأنها رأت الرسول ﷺ هكذا كل ليلة وعرفته هكذا. فلقد ربّاها الرسول الكريم وعجنها بالتبليغ العملي.

إن الصحابة الكرام لا يظهرون الدقة والحساسية في تبليغ الصلاة فحسب، بل في سائر الأركان الإيمانية والدينية أيضاً كما يظهرونها في الصلاة، لأنهم تعهّدوا أمر التبليغ من الرسول الكريم ﷺ. ولكي يكون تبليغنا ذا أثر لا بد أن نعايش الحياة الدينية كما كانوا يعايشونها.

ومن جهة أخرى يجب ألاّ تسوقنا تبعات العمل في التبليغ والإرشاد وتكاليفهما إلى التراخي في الأعمال الأخرى قطعاً، بل يجب أن يحضنا حضاً إلى تطبيق ما نقول وتنفيذه في حياتنا بشوق أعمق مما لدى المخاطبين لنكون موثقين معتمدين. إذ الأطوار والأحوال التي لا تتطابق مع الأقوال تعني مخادعة وهدماً لاعتبار الإنسان.

انظروا إلى سيد المرسلين ﷺ هل أظهر إهمالاً قط حتى في أصغر شيء في الحياة الدينية رغم كثرة الأعمال التي تنتظره؟ فلقد أسس في فترة قصيرة خلال ثلاث وعشرين سنة دولة عظيمة جليلة. وكان ذا اهتمام بكل مشاكل أفراد أمته وذا علاقة بهم. ورغم أن الأعمال التي تحيط به تسع الدنيا لم ينس أفراد عائلته، ولم يتوان في أي عمل كان من الأعمال، حتى كان الله سبحانه يطلب منه كثرة الاستغفار والدعاء في انتصاره وظفره

---

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٢٩٥؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٣٥٠- ٣٥١.

(٢) أبو داود، السنة ٢٥؛ الحاكم، المستدرك ٤/ ٦٢٢.

في الفتوحات وكان لا يتحرك إلاّ بما كان يأمره ربـــه.[1]

وكذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ لم يترك صلاة التهجد مع أنه كان في جهاد شاق مع المرتدين، وفي قلق بال دائم ليل نهار ولم يتوان عن تلاوة القرآن باكياً.[2] وسيدنا عمر ﷺ الذي أركع دولتين عظيمتين، هما الفرس والروم، لم يتوقف لحظة عن مجاهدة نفسه.[3]

وسيدنا عثمان ﷺ عندما أحاطت به الفتن كان صائماً تطوعاً لله ويتلو القرآن دون ارتواء، واستشهد على هذه الحالة، وقطرات الدم التي سالت من جبهته ختمت ختم الأبدية على صفحات المصحف المفتوح أمامه. حتى إن الآية التي نـــزلت عليها القطرات ذات عبرة عظيمة وهي: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُم اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٣٧).[4]

وسيدنا علي كان الحيدر الكرار أي الأسد الهصور في سوح الحرب، ومع هذا كانت تتجافى جنوبه عن المضاجع داعياً ربه وساجداً له، وكان يصفرّ وجهه عند سماعه الأذان ويرتعش كمن به حمّى.

فهؤلاء جميعاً يؤدون وظيفة الإرشاد على أفضل وجه.[5] فلا بد لمن يؤدي وظيفة الإرشاد والتبليغ أن يكون مخلصاً في إجراء قوله عملاً، مهما كان عمره وأيا كانت وظيفته. فكما يمكن أن يكون هذا المبلغ شيخاً أو إماماً في مسجد أو واعظاً فيه أو معلماً في مدرسة أو أستاذاً جامعياً، يمكن أن يكون كذلك عاملاً في معمل أو طالباً في مدرسة، فالكل لا بد أن ينفّذ ما يقوله حسب ظروفه وموقعه ويؤدي ما عليه دون نقصان أو قصور.

---

(١) انظر: سورة النصر.

(٢) انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي، ١٤٣/٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠/١.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٤٨/١، ٤٤٩؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٥٧/٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٩٣/٤.

(٤) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٧٢/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٥٩٤/٣؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢٨٦/٣.

(٥) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي، ١٢٨/١.

ومهما كان الموضوع يحرز أهمية في أثناء الإرشاد والتبليغ فإن إخلاص المبلّغ نفسه بنفس الأهمية. والتي يشير إشارة مهمة إلى إخلاص المرشد هو شعوره بما يقول في أغوار وجدانه ويعيش بـــه بأكمل وجه. فالتبليغ غير المقارن بالإخلاص والعمل لا تأثير له أو قليل التأثير مهما أحرز من نجاح. ومن جهة أخرى فإن هذا العمل (التبليغ) له وجهه الآخر المتعلق بالآخرة، وهو عذاب الله تعالى. يقول الرسول ﷺ موضحاً لوحة من الآخرة على الصورة الآتية:

"مررتُ ليلةَ أُسري بي على قوم تُقرض شِفاههم بمَقَاريضَ من نار – قال– قلت: مَن هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهلِ الدّنيا كانوا يأمرون النّاس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أَفَلا يعقلون".[1]

نعم، اللوحة ماثلة أمامنا. وهذا هو موقف الذيـــن نسوا أنفسهم ولا يعملون بما يقولونه للنـــاس. فالوقت الحاضر بحاجة الى الذيـــن يفعلون بما يقولون وليس إلى المجادلين والمتحذلقين. فهؤلاء يمكنهم ان يحلوا العقد المستعصية في أفق نجاتنا وخلاصنا وليس غيرهم. فالذين حملوا أسفاراً، أو يولدون الكلام ليل نهار صفر اليدين أمام مهمة نجاة الأمة. فعندما انهارت الدولة العثمانية كانت خزانتها مليئة بمئات الألوف من الكتب ولكن هذه الكتب لم تتمكن أن تحول دون سقوط دولة عظيمة. فوجود تلك الكتب في رفوف المكتبات، والمعلومات المخزونة المصففة في حافظة الإنسان لا فرق بينها من حيث الكيفية. فالأصل هو العمل بما علم. فقد قال الرسول ﷺ سيد الكائنات في حديث شريف هذا المعنى كالآتي: «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي ثلاثٌ: زَلّةُ عالِمٍ، وجِدالُ منافق بالقرآن، ودنيا تُفتح عليكم».[2]

نعم إذا ما نافق العالم وخادَع وتحذلق المنافقُ، فقد حقت نهاية هذه الأمة.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٣/١٢٠ – ٢٣١، ٢٣٩.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ٢٠/ ١٣٨.

فكل من كان في موضع المرشد أو المبلغ لا بد أن ينتبه بدقة إلى هذه النقطة. إذ كثيراً ما نغفل عنها، ونقطة ضعفنا في وظيفة الإرشاد، سواء أفراداً أو مؤسسات، هو هذا مع الأسف. ولنتذكر هذا عندما نفكر في معاملة الله سبحانه معنا.

## ٨- الصفاء والإخلاص

المبلّغ لا بد له أن يحافظ على كيانه وطوره، ونقصد به: أن يظل على ما كان عليه من تواضع وإنكار ذات مهما اعتلى من مقامات ومناصب. ولا جرم أن التواضع من أسس الإسلام وصلبه. في حين تتمركز العلاقات بين الأفراد في النظم الأخرى حول "أنا"، فـ"أنا" هؤلاء ينطوي دائماً على التكبر والغرور. فيشغل الغرور والتكبر موضع التواضع ويشغل الإعجاب بالنفس والتعالي على الآخرين محل إنكار الذات.

ومن المعلوم أن أنواعاً من الضعف البشري تدور حول "أنا" في كل إنسان، لذا إن لم تتخلّ هذه الأنواع من الضعف عن مكانها للفضائل، تتهاوى جوانب الإنسان المعنوية. ومن هنا أؤكد وأقول: لن يكون مرشداً ومبلغاً قط من ينطوي على غرور وكبر مهما ارتقى في مقامات عالية وتسنّم وظائف جليلة. فهو أبعد بفراسخ عن التبليغ، والتبليغُ أبعد منه بفراسخ.

نعم، إن المبلغ يحافظ على وضعه كما هو في كل زمان ومكان وأياً كانت الظروف. فهو ذلك الإنسان الذي لم يطرأ عليه تغيير، ولم يزغ بصره بعدما حاز ما حاز من النصر والتوفيق، وهو الذي ينهي عمله كما بدأ به أول يوم. فحياته التي بدأت على حصير متواضع تدوم تدوم على الحصير، ويلقى ربه وهو على ذلك الحصير، فهو هو مهما تغيّر العالم من حوله، وقامت انقلابات عالمية عظيمة، وافترش الناس النجوم والكواكب، فهو في تواضعه لا يشاهَد منه انحراف قط سواءً في أطواره أو في معاملاته.

وما أحوجنا في أيامنا هذه إلى أمثال هؤلاء المبلّغين المتصفين بهذه الصفات؛ فهؤلاء المرشدون الأقوياء يتمكنون أن يجعلوا الجمّ الغفير من الناس يتبعونهم ويستمعون إلى أقوالهم ويستنشقون أنفاسهم، حتى تشيع نسائم وجدانهم إلى مَن حولهم.

إن أهم ما يتميز به المبلّغ المخلص تواضعُه وإنكاره للذات، فحياته كلها تتسم بالبساطة والفطرية، وقلبه مفعم بالتجرد والبساطة، وعينه مليئة بأنوار البساطة، حتى مسكنه ومحيطه وبيئته لا يشاهد فيها إلاّ التواضع والبساطة.

نعم إنه استلهم هذه الخصلة الجميلة من القرآن الكريم ومن سيرة الرسول الأعظم ﷺ المطهرة. ألم تكن أطواره ﷺ طوال حياته تتسم بالبساطة والتواضع. فكما كان ﷺ في تواضع جمّ أيام بدئه بالتبليغ في مكة المكرمة، كان كذلك في التواضع نفسه عندما دخل مكة قائداً فاتحاً -بعد أن أُخرج منها قبل ثماني سنوات- دخلها بالجيش الذي أنشأه في المدينة المنورة، دخلها وهو واضع رأسه على عنق دابته.. فما أجمل هذا المثال على ازدياد تواضعه وخشوعه لله كلما مر الزمان.

كان عطشاً فطلب ماء. وبئر زمزم حوله أقداح يستعملها الناس. أسرع صحابي إلى إحدى البيوت القريبة لجلب قدح خاص للرسول الكريم ﷺ. وإذا بالرسول يأمره أن يأتيه بأي قدح من الأقداح التي يشرب منها الناس. إنه لم يميّز نفسه عن الناس، وأمر بذلك. إذ قال: أنا واحد من الناس أشرب مما يشربون به. أما أمضى حياته كلها على حصير من ليف النخيل، حتى التحق بالرفيق الأعلى وهو على الحصير نفسه؟ بل دفن في موضع ذلك الحصير. وهو جزء من الروضة التي نعدها أقدس من الجنة. فلم يك في حياته أي اعوجاج قط. وما أظن طريق التبليغ إلاّ هذا.

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يحكم أرضا تسع سبع مرات مساحة تركيا في الوقت الحاضر. ومع ذلك لم يتغير طوره في حياته منذ أن أسلم. كان أفقر

أهل المدينة حين تولى الخلافة وأفقرهم حين استشهاده. وقد وردت روايات أنه كان على ملابسه أكثر من ثلاثين رقعة.[1] بل كثيراً ما وجده من يبحث عنه في "البقيع" وهو واضع رأسه على شاهد قبر مستغرقاً في التفكير.[2] نعم هذا هو طرز حياة الخليفة العظيم الذي نـــزع التيجان من فوق رؤوس الملوك وألبسها آخرين. وكان هذا الطرز من الحياة أبلغَ جانبٍ من جوانب تأثيره. ويصح أن نقول: إن هذا هو تأثير لسان الحال الذي هو أبلغ من لسان المقال.

لقد سَمع حاتم الأصم وهو من كبار علماء الحديث عن مرض أحد كبار علماء الفقه محمد بن مقاتل -قاضي الريّ- وقرر عيادته مع أحد أصدقائه فجاءا إلى الباب فإذا هم أمام قصر فخم وليس أمام بيت عالم فتردد حاتم من الدخول ثم دخله تحت إصرار صديقه، ولكنه ندم على الدخول، فداخل البيت أفخم من خارجه. ثم دخلا إلى المجلس الذي فيه محمد بن مقاتل، فإذا بفرش وطيئة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام يحرك مروحة ليبترد بأنسامها، فتحولت حيرة حاتم أمام هذا المنظر إلى اندهاش، فمحمد بن مقاتل ليس رجلا من الناس بل عالم جليل ولا شك أن سجادته مبللة بدموع صلاة الليل وقيامه، ولكنه بحاجة إلى الإرشاد من حيث ضعفه ورغبته في العيش الرغيد، وحاتم أهل لهذه الوظيفة ويقدر على إبلاغه ما يفيده. ولهذا بدأ بينهما الحوار.

"فقال له حاتم: علمُك هذا من أين جئت به؟ قال: الثقات حدثوني به. قال: عن مَن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: رسول الله ﷺ من أين جاء به؟ قال: عن جبريل عليه السلام. قال حاتم: ففيم أداه جبريل عن الله وأداه إلى رسول الله ﷺ وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات وأداه إليك

---

(١) انظر: عمر وإدارة الدولة لشِبْلي النعمانيّ ٢/٣٩٣.

(٢) انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي، ٣/٥٨٧.

هل سمعت في العلم من كان في داره أمير أو منعة؟ قال: لا. قال: فكيف سمعتَ مَن زَهدَ في الدنيا ورَغبَ في الآخرة وأحبّ المساكين وقدّم لآخرته كان له ثَمّ الله المنـــزلة أكثر. فازداد ابن مقاتل مرضا. فقال مَن حوله إلى حاتم: ستقتل بكلامك الرجل. قال: بل أنتم بأطواركم هذه تقتلونه.

نعم، إن السكوت أمام الذين درجوا في درب الإرشاد والتبليغ ثم عدلوا عما كانوا عليه -بتوجه الناس اليهم- يعني قتلهم والإساءة إليهم.

وحاتم الأصم أدى ما كان عليه أن يؤديه في ذلك الموقف.

وفي يوم آخر سار إلى الإمام الطنافسي، وهو من العلماء الأعلام في زمانه. وكان في بحبوحة من العيش لعلاقته القوية مع رجال الدولة. فدخل عليه فقال: "رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلّمني أول مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة؟ قال: نعم وكرامة. يا غلام إناء فيه ماء. فأُتي بإناء فيه ماء، فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثا، ثم قال: يا هذا هكذا فتوضأ. قال حاتم: مكانك يرحمك الله حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد. فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثا ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا فقال له الطنافسي: يا هذا أسرفتَ. قال له حاتم: في ماذا؟ قال: غسلتَ ذراعيك أربعا. قال حاتم: يا سبحان الله أنا في كفّ من ماء أسرفتُ وأنت في هذا الجمع كلّه لم تسرف.. فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك، لم يرد أن يتعلم منه شيئا".[1]

والطنافسي عالم جليل القدر إلاّ أن ارتباطه برجال الدولة ساقه إلى هذا النمط من الحياة. وحاتم الأصم نبّهه إلى ما لا يليق برجل الإرشاد من نمط الحياة.

أما في الوقت الحاضر فالذين يعيشون هذا الطراز من الحياة الباذخة يزلّون -من حيث لا يشعرون- إلى هذا الوســـط الذي تزل به الأقدام. إلاّ أن

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٨١/٨.

المشاهَد أن هؤلاء الذين لم يستطيعوا وجدان ذواتهم يريدون إتمام ما هو ناقص من شخصياتهم بالحياة الباذخة.. وهذا نابع بلا شـــك من شعور بالنقص. والمتكاملون بشخصياتهم يترفعون عن مثل هذه الوسائل البسيطة. والمبلّغ أو المرشد هو الإنسان المتكامل بشخصيته. لذا لا يرد بالبال استشرافه لمثل هذه الحياة المرفهة.

إن إنكار الذات علامة الوقار والعظمة. ومتى ما أدرك المرء أنه واحد من الناس يدرك كونه إنساناً. والذين يُعظَّمون بأسباب عرضية ما إن ترفع تلك الأسباب حتى يتلاشوا وينتهوا. فإن كان الغنى والمال والملك والمقام أسباباً لكبرهم وعظمتهم، فذهاب هذه الأعراض من أيديهم يعني اضمحلالهم نهائيا. والحال أن قيمة الإنسان نابعة من غنى ذاته، فتغير الأحوال والأطوار لا يزيد في هذا الغنى ولا ينقص منه ولا يبدل شخصيته بل يبقى بذاته وشخصيته. إذ لا تُعرّف الأعراضُ مَن كان متكاملا بذاته، ولا ينتهي بموته ومفارقته للناس. بل ينصب خيامه في قلوب مئات الألوف. وليكن لا مسكن ولا مأوى له هنا ولتمض حياته على حصير فهو موضع تزاحم الزوار إليه هنا وهناك، وليكن حتى قبره مجهولاً وليس له شاهد قبر..

الخلاصة: إن المبلغين والمرشدين يعيشون عيشة بسيطة فطرية. وعليهم أن يهتموا بهذه البساطة مهما بلغوا من مراتب اجتماعية.

## ٩- موازين في العلاقات برجال الدولة والأغنياء

المبلّغ والمرشد، لا يكون ذا علاقة وطيدة مع رجال الدولة والطبقة العليا من الناس خارج ضرورة الإرشاد والتبليغ.

يقول الرســـول ﷺ: "شرار أمّتي العلماء الّذين يأتون الأمراء، وخِيار الأمراء الّذِين يأتون العلماءَ".[1]

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٤٦٢٧/٢؛ الفردوس للديلمي، ١٥٥/١.

نعم، إن أهل الإرشاد لا يبقون تحت منّة أحد من الناس، إذ لا يكون كلام من كانت همته مَلءَ بطنه على موائد الأغنياء، والتشبثَ بأبواب رجال الدولة والتملق إليهم، مؤثراً فيهم ولا في غيرهم؛ ذلك لأن الإنسان عبد الإحسان، كما هو مقرر. ولكن إن أتى رجال الدولة والأغنياء إلى المرشدين والمبلّغين فهذا عمل يستحق التقدير كله ما لم يستغل لأمور أخرى. لأن المرشد الحقيقي هو الذي يدل أولئك ويمكنه أن يستشعرهم بما يستنشقه هو من نسائم العقبى، فهذه النسائم اللطيفة تكون استنشاقاً أيضاً لتلك الأرواح الثملة بالحياة التجارية والاجتماعية والإدارية وراحة لهم.

كان يحضر عمر بن عبد العزيز ﷺ جمعا من العلماء، ولا يتوانى عن استشارتهم رغم أنه كان أزهد منهم في الحياة، وكان رجاء بن حيوة من هؤلاء.. وكان رضى الله عنه يذهب بنفسه إلى آخرين ويشاركهم في مجالسهم حتى كان يعدّ ساعة عند عُبيد الله بن عبد الله تعدل العمر كله. ولقد كان ينصت إلى بياناته التي تبعث على الحياة بدقة متناهية، ويسعى للاستفادة منها، علماً أنه كان بحراً من العلوم وبمستوى من يتردد عليهم في الأقل. والحقيقة أن ما جعل عمر بن عبد العزيز في هذه المكانة هو هذا. حتى سعى للقيام بإجراءات تحتاج إلى نصف قرن خلال فترة خلافته التي دامت سنتين ونصف السنة.

ومع كل هذا، فهناك من يورد كلاماً يستحسن فيه التردد على الأمراء بحجة إرشادهم؛ ولكن يتضح بعد مدة أنهم مثلما لم يتمكنوا من إرشادهم أصبحوا هملاً، حتى أضاعوا ما كانوا يتمتعون به من مواهب، ذلك لأن طريق الرسول ﷺ ليس فيه حصر الإرشاد بالمثقفين فقط أو الطبقة الراقية من الناس، ولا فيه مجالستهم وحدهم دون غيرهم، وإنما يحدث ذلك في أوقات الضرورة بشرط ألاّ يكون على حساب الأصل ولتبقى المسافة أيضاً مصونة.

فحين طلب زعماء قريش من الرسول الكريم ﷺ في عهد مكة تخصيص

يوم لهم لا يكون فيه أمثال عمار وبلال وصهيب، وليخصص الرسول المجلس لهم، نـــزلت الآية الكريمة منبّهة وَسَادَّةً جميع الأبواب أمامهم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٨).

والحقيقة أن روح الرسول الكريم السامية هي بعيدة كل البعد من مثل هذا الاقتراح. والآية الكريمة تبين أن الوضع الحالي للرسول ﷺ هو الوضع المطلوب منه، وعليه الاستمرار عليه وإلاّ لم يمل الرسول ﷺ إلى اقتراحهم.

الخلاصة: أن الرسول ﷺ مرشد والقرآن كتاب يعلّمنا الأصول والموازين في شخص أعظم مرشد على الإطلاق. وقاعدة من تلك القواعد هي طور الاســـتغناء عن الأغنياء والمسؤولين في المجتمع وعدم الإعجاب بهم مع الاســـتمرار في تبليغهم وإرشادهم. فإذا ما وجد الناس في الوقت الحاضر مرشدين أمثال هؤلاء فقد وجدوا شيئاً عظيماً. وإلاّ سينتظر هذا المجتمع طويلاً ما داموا مستغفلين بأنصاف المرشدين.

## ١٠- المثابرة

الإلحاح والمواظبة على الأمر وسيلة لجلب الرضى الإلهي، وفي الوقت نفسه علامة على إخلاص المبلّغ وسرّ من أسرار قبول ما يبلّغه في وجدان المخاطبين، وهو أوضح أمارة على جدية المسائل التي يتناولها المبلّغ والمنسجمة مع عظمتها. وهذا يعني: أن الله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن تستقر كلمة "لا إله إلاّ الله في القلوب، ويولي لها أهمية عظيمة. لذا يوقف المرشد حياته لما هو مهم وجليل عند الله، مواظباً على جعل كلمة التوحيد تستقر في القلوب. فيكون قد قابل بانسجام ما هو عظيم عند الله. نعم إن إلحاح المبلّغ وإصراره يعني هذا المعنى.

وكذا فإن من علامة التقوى في القلب أن يعظّم المرء ما عظّمه الله سبحانه، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(الحج:٣٢). والرسول الكريم ﷺ يلقّن أصحابه الكرام باستمرار ما يعظمه الله سبحانه وتعالى من كلمة التوحيد. فيقول لهم: من قال: لا إله إلاّ الله دخل الجنّة".[١] فمثلاً منح الرسول الكريم ﷺ سيدنا خالد بن الوليد ﷺ لقب "سيف الله" وهو بعدُ في بداية الأمر مباركاً الفتوحات التي ستفتح بسيفه. ولكن عندما قَتَل خالد بن الوليد بسبب من الأسباب أحدَهم في الحرب وهو يقول "لا إله إلاّ الله" تألم الرسول الكريم من عمله هذا ألماً شديداً حتى دعا قائلاً: "اللهم إني أبرأ إليك مما عمله خالد".[٢]

ولا أنسى ما قال لي أحدهم يوماً -وهو يعدّ نفسه مجاهداً في سبيل الله-: "أتعلم أن الإسلام إذا حكم في يوم من الأيام سيضرب أوّلاً أعناق هؤلاء المساكين الذين يملأون المساجد"، فتجمدت في مكاني أمام هذا الكلام الذي لا يفيد إلاّ الضلالة، والحال أن القائل يظن أنه يقول شيئاً لأجل الإسلام.

فالمبلّغ يلح ويصرّ على ما عظّمه الله سبحانه، لأن ذلك يبين مدى إخلاصه وتفانيه في دعوته. نعم إن مَن لا يضحي في سبيل دعوته عمرَه كلّه لا يكون مرشداً حقاً. بل لا يصح إطلاق أسم المرشد عليه. إذ المرشد يبلّغ مئة مرة، فإن لم يستمعوا إليه يبلّغ للمرة الواحدة بعد المئة وهكذا.. فهو يبلّغ ويبلّغ طوال عمره وينتظر الفرصة السانحة لاكتمال الشروط ولحظة قبول المخاطب، دون أن يساوره امتعاض ولا سخط، مقتدياً بالأنبياء عليهم السلام الذين كانت حياتهم كلها إصراراً وإلحاحاً ومثابرة. فقد بلّغوا الحق للناس دون هوادة.

نعم، لقد مضت حياة الرسول الحبيب ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة بالدعوة

---

(١) مسلم، الإيمان ٥٢؛ الترمذي، الإيمان ١٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨/١.

(٢) البخاري، الأحكام ٣٥، الجزية ١١؛ النسائي، القضاة ١٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١٥١/٢.

والتبليغ، لم يجد فراغاً من الدعوة، بل بلّغ ودعا وبلّغ ودعا دون توقف ولا نصب. والله أعلم كم من المرات دعا أبا جهل إلى الإيمان، ودعا عظماء قريش إلى الضيافة، فكلما حانت له الفرصة بلّغ الإيمان.

وكان الصحب الكرام في هذه الحالة الروحية من المواظبة والإلحاح، حتى غدت صفةً ملازمةً لهم، وكذا العظماء الذين أتوا من بعدهم اتخذوا المثابرة والإصرار شعاراً لهم.

نعم، الإلحاح والمواظبة نتيجة طبيعية لمدى إدراك المبلّغ وظيفته، إذ على المبلّغ أن يدرك أن وظيفته الأساس هي التبليغ، كيلا يكون قليلَ توقيرٍ تجاه الحق سبحانه وهاضِمَ حقٍّ تجاه الخلق. علماً أن إيصال الناس إلى الهداية ليس في طوق أحد قط، ولا هو داخل ضمن وظيفة التبليغ، فهو نائل ثوابه سواء اهتدى المخاطب أم لا. ومن جهة أخرى فإن إلحاحه على التبليغ هذا وتفكيره الدائم به، بمثابة شفرة سرية لمقبولية الحقائق التي يبلّغها، وانتظاره النتيجة من الله وحده سبحانه بلوغ منه إلى الإخلاص، ذلك الإخلاص الذي هو خلاصة العبادات ومنبع الحياة.

## ١١- اقتضاء البصيرة، وعدم مصادمة قوانين الفطرة

المبلّغ لا يصطدم قطعاً مع قوانين الفطرة. بل يتخذ البصيرة أساساً في تبليغه، لأن الفطرة مستقرة بالآيات التكوينية، فالتكاليف والأوامر التي تُبلّغ يجب أن تُبلّغ وفق هذه القوانين، أي تؤخذ الخصائص والمزايا التي فُطر الإنسان عليها بنظر الاعتبار؛ فيخاطب وفق تلك المزايا والخصائص. وبخلافه ربما لا يهتم المخاطب بالكلام مهما كان بليغاً وبراقاً؛ لأنه قد لا يفهم كلياً ما يخاطب به أو يعدّه أموراً نظرية خيالية. ولعل في توضيح هذا الأمر فائدة:

فمثلاً: يحمل كل إنسان شعوراً بالمحبة في قلبه، فمن الخطأ عدم اعتبار هذا الشعور أو عَدُّهُ غيرَ موجود. لذا لا يقال للناس: لا تحبوا... فإذا قيل

لهم هذا لم يفد شيئاً سوى أنه تكليف مجانب للفطرة. ولكن المبلّغ يُجري هذه "المحبة" الكامنة في المخاطب إلى سيرها الإيجابي، فيحث المخاطب على أن يحب ما هو جدير بالمحبة وما له البقاء والخلود، بدلاً من إبداء المحبة إلى محبوبات زائلة فانية، فلو صرف محبته إلى الزائلات الفانيات تكون عليه بلاء ومصيبة، بينما إذا وجهها إلى الله سبحانه تكون له وسيلة بلوغ إلى مراتب عنده سبحانه. بمعنى بدلاً من أن يقول المبلّغ للمخاطب: "لا تحب" يقول له: "أصرف الحب إلى من هو سـرمدي دائمي، أو اصرف حبك لأجله وفي سبيله". وعند ذلك تكون محبة جميع المخلوقات غير محظورة، وقد قال الشاعر يونس أَمْرَه "أحبّوا المخلوقات لأجل خالقها".

وكذا في كل فرد صفة "العناد" التي قد توقع الأفراد بعضهم ببعض حتى تجعلهم كالوحوش الكاسرة. فنرى العناد بوضوح وراء أحداث الاضطرابات والنـزاعات في الوقت الحاضر. ومتى ما تحكّم هذا الشعور ظهرت الحدّة والغضب والشدة في أمور، بينما إذا ما خلا الموضع من العناد تبرز أطوار متوازنة ومنسجمة. فهذا الشعور الذي في مظهره الخارجي كثير من الجوانب السلبية قد منح للإنسان لغاية معينة وبناء على حكمة ربانية، فمثلاً: العناد قوة عظيمة للثبات على الحق. فإن لم يكن شعور العناد يمكن أن يتراجع الإنسان عن الحق إذا رأى قليلاً من الضيق. بمعنى أننا إذا ما وجهّنا هذا الشعور إلى وجهه الإيجابي يمكن أن نجني ثمرات ونتائج حسنة جداً. ولهذا لا يمكن أن نقول للناس: دعوا العناد جانباً أو اتركوا العناد، بل علينا أن نقول لهم: استعملوا العناد في الثبات على طريق الحق والحقيقة. فهذا أجدى وأسلم.

وفي الإنسان الشعور بـ"الأبدية" أيضاً، بينما الإنسان ببنائه المادي ليس أبديا فله بداية ونهاية، فالحياة تبدأ بتلقيح البيضة بالحيمن في رحم الأم، وعلى الرغم من أن الموت يأتيه من كل مكان منذ اللحظات الأولى إلاّ أنه لا يتمكن من اقتلاع ما فيه من الشعور بالأبدية، بمعنى أن الشعور لم يُعط له إلاّ

لغاية سامية. ولا شك أن هذه الغاية هي الفوز بالحياة الأبدية. ولأجل ذلك فعلى الإنسان أن يستعمل هذا الشعور الموهوب له في موضعه، أي للبقاء في الجنة ورؤية جمال الله.. وإلاّ سيكون هذا الشعور سوط عذاب له يذكّره بإهماله ويأسه، ولا يستطيع إنسان يتعذب تحت هذا السوط أن يعيش عيشة متوازنة، ولا أن يتصرف تصرفاً متوازناً، ولا أن يحيا بأمان.

وفي الإنسان أيضاً حب "الجاه" والترقي باستمرار، والتسلق إلى ذروة ما يستهدفه من غاية و الوثوب إليها.. هذا الشعور لا يمكن صدّه عند كثير ممن لهم هذا الضعف. ولهذا فعلى المرشد أن يكتشف هذا الشعور في الإنسان ويدلّه على أفق ما يستهدف بهذا الشعور، لئلا يكون كلامه مورثاً لعكس ما يريد. فلقد مُنح للإنسان هذا الشعور كي يحثه إلى أن يستهدف ذرى مراتب الجنة. فضلاً عن أنه يسمو إلى أعلى مراتب الفضائل بوساطة هذا الشعور. نعم يتسامى ويعلو ولكن كشف هذا الشعور والمشاعر الأخرى، وإظهارها ومعرفة قواها ومجراها واستعمالها لصالح من تناولها باسم الإرشاد مرتبط بإدراك المرشد وببصيرته.

نعم، إن المعاناة والمكابدة قَدَرُ هذا الطريق. لذا فالمرشد والمبلّغ يرضى مقدماً بالمعاناة كما رضي بها الأنبياء والصديقون والشهداء والمرشدون الصالحون جميعاً. نعم، إن الحَمَلة الطاهرين للدعوة الإلهية لا بد أنهم يسلكون ما سلك هؤلاء قطعاً ويرون ما رأوا فيه. فإن كان هذا الطريق مسلوكاً فالعدول عنه يعني البعد عن الغاية والهدف. والبعيد عن الغاية لا يصح إطلاق اسم المبلّغ عليه.

فلقد عانى سيدنا نوح عليه السلام عصوراً طوالاً. ونُفيَ سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا السبيل، وأُلقي في النار في هذا السبيل أيضاً. ولم يبق شيء لم يعان سيدنا موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وشُق سيدنا يحيى إلى نصفين. ولم ير وجه سيدنا المسيح عليه السلام الابتسامة. لأن هذه الدعوة ثقيلة، وهذه الدعوة

صعبة. هذه الدعوة تطلب الإرادة كلها. لذا فهذا من أصعب النضال، فالذين لا يقدرون على حب هذا القدر المكتوب، ولا يتعرضون عن رضا الى ما فيه من معاناة ومكابدات لا يمكنهم أن يخطوا خطوات في طريق سلكه الأنبياء. ففي أثناء الطريق تتراخى إرادتهم، وتنهار قواهم ويتساقطون.

يقول حارث بن حارث: "قلت لأبي -ونحن بمنى-: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم. قال: فأشرفنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله والإيمان به وهم يؤذونه، حتى ارتفع النهار وانتبذ عنه الناس، فأقبلت امرأة تحمل قدحا ومنديلا، قد بدا نحرها تبكي، فتناول القدح، فشرب، ثم توضأ، ثم رفع رأسه إليها فقال: يا بنية، خمِّري عليك نحرك ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً، فقلت: من هذه؟ قال: هذه ابنته زينب".[1]

فأمثال هذه الحوادث التي حفرت في ذهن الصبا لحارث بن حارث رضى الله عنه وتركت آثارها في روحه كانت جانباً من جوانب حياة العهد المكي بدءاً بالرسول الكريم وجميع المسلمين، فكان كل يوم من أيام حياتهم يمضى هكذا...

وفي يوم آخر كان الرسول يصلي في الكعبة فأتاه من الخلف ابن أبى معيط -الذي هو أشقى قومه- وبدأ بخناقه، فما إن سمع بالخبر أبو بكر الصديق حتى أسرع قائلاً: "أتقتلون رجلاً يقول ربي الله". وفصل بينهما.

وكم من مرة وقع سيدنا أبو بكر مغمىً عليه في أزقة مكة من الضرب، ومرة "ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين وبحرفهما على وجهه ونـــزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب لا يشكّون في موته، ولما تكلم آخر النهار قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟".[2]

---

(١) أسد الغابة للابن الأثير، ٤٣٦/١؛ الإصابة لابن حجر، ٢٧٥/١؛ الإستيعاب لابن عبد البر، ١/ ٣٤٩.
(٢) البداية لابن كثير، ٢٩/٣.

وتكوى أجساد عمار في جهة وأبيه في جهة أخرى وسمية أمه في زاوية أخرى.. كانوا ينقشون قَدَر هذا الطريق على أعمدة من رخام.[1] وعندما كان بلال يئن تحت الصخور الموضوعة على صدره بـــ"أحدٌ، أحدٌ" كأنه يجرى امتحانه ليكون يوماً ما مؤذن رسول الله ﷺ.[2] وطلحة بن عبيد الله كبّلته أمه بالسلاسل وطوّفت به سحلا في الأزقة.[3] والزبير بن العوام يحرق ملفوفاً بالحصير.[4] وهكذا كانوا يعكسون كالمرآة المحلوة لون هذا الطريق.

ولوحة أخرى: عبد الله بن حذافة السهمي رضى الله عنه أصبح أسيراً بيد الروم، فعذبوه لأيام عدّة. "فقال له ملك الروم: تنصّرْ أشركْك في ملكي، فأبى. فأُمر به فصُلب، وأُمر برميه بالسهام فلم يجزع. فأُنـــزل وأُمر بقدْر فصُبّ فيها الماء وأغلي عليه وأُمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامُه تلوح. فأُمر بإلقائه إن لم يتنصّر. فلما ذهبوا به بكى. قال: ردّوه. فقال: لِمَ بكيت؟ قال: تمنيتُ أن لي مائة نفس تلقى هكذا في الله. فعجب. فقال: قبّل رأسي وأنا أخلي عنك فقال: وعن جميع أسارى المسلمين. قال: نعم. فقبّل رأسه فخلّى بينهم. فقدم بهم على عمر فقام عمر فقبّل رأسه".[5]

فهذه رواية.. أما الرواية الثانية فتذكر اللحظات الأخيرة كالآتي: عندما كان يخطو عبدالله ابن حذافة بخطوات قوية -والابتسامةُ تعلو وجهه- إلى منصة الإعدام، اقترب إليه أحد القساوسة وطلب ممن حوله من الجنود أن يسمحوا له ببعض الوقت ليحاوره، ثم يتوجه إلى عبد الله بن حذافة مخاطباً له:"انظر يا بني أنك ستعدم بعد دقائق، ولأجلك طلبت دقائق لأحاورك، فإذا استطعتُ أن أفهمك في هذه الدقائق الدين الحق النصرانية فستفوز بالآخرة

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٤٢/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٤٦/٣- ٢٤٨.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٤٢/١.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٣٩/١- ٣٤٠؛ الإصابة لابن حجر، ٤١٠/٣.

(٤) الإصابة لابن حجر، ٥٤٥/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥١/٩.

(٥) الإصابة لابن حجر، ٢٩٦/٢، ٢٩٧؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢١٢/٣.

حتى لو فقدت الدنيا. ولربما يرتاح الملك لتصرفك هذا فيعفو عنك".

أجابه عبد الله بن حذافة ﷺ جواباً ملؤه الوقار والجد: أيها الأب العزيز، لا أعلم كيف أقدم شكري إليك في هذا الوقت، فلو كان ديني يسمح لي لقبّلت يدك، لأنك قد أنقذتني من ورطة كبيرة؛ إنها ثقيلة عليّ جداً أن أغادر الحياة و لم أبلّغ شيئاً عن الإسلام لأحد، فأنت الذي أتحت لي هذه الفرصة. فإن كنت أقدر على إفهامك الإسلام في هذه الدقائق القليلة فلا أحزن إن مت. لأنه ربما يكون ذلك سبباً لإنقاذ حياتك الأخروية.

تحير الناس الذين من حولهم بهذا الحوار حتى فغرت أفواههم حيرة وعجباً، لأنهم لا يدركون مدى عشق التبليغ لديه. نعم، يجب أن يكون التبليغ لدى المبلّغ ناراً تؤجج الشوق والاشتياق دائماً، وشمسَه التي لا تغرب ويكون سبباً لإنارة ما حوله، ويكونَ غايةَ حياته. فالطريق إلى النصر والفلاح يمر من المعاناة والقلق. وحالما تنتهي المعاناة الاضطرارية، تبدأ المعاناة الاختيارية. أتريد مثالاً على ذلك، فدونك المثال:

كان الرسول ﷺ يعاني معاناته الاختيارية في المدينة المنورة عندما كان بيت المال يطفح بالغنائم والأموال ولكنه يمر أسبوع ولا يجد ما يشبعه... يقول أبو هريرة: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب».[1]

وهكذا تأسس الإسلام العظيم على مثل هذه الأسس الحياتية، ولئن كان الإسلام قد أقام عرشه على القلوب بهذه الأسس فسيقيمه على أكتاف المجاهدين الذين يعيشون بنفس الحالات الروحية ويمثلونها. وإلاّ فهذه القضية العظيمة ليست قضية أساتذة الأقلام وسادة البيروقراطية ومن لم يرَ المعاناة و لم يقاسها.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠٩/٧؛ كنز العمال للهندي ١٩٩/٧

ونشاهد هذه الحقيقة الكلية في وصية لقمان عليه السلام لابنه، وبالأحرى للشباب الذين هم أعظم الممثلين لأعظم دعوة. والقرآن الكريم يقرر هذه الوصية دستوراً خالداً: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لقمان:١٧).

بمعنى أن الذي يقيم الصلاة ويأمر المعروف وينهى عن المنكر ستتوالى عليه المصائب... وكأن هذه الأمور وجوه لحقيقة واحدة. فالذي يعمل بواحد منها يكون قد عمل بوجه واحد من هذه الحقيقة. وإذا ما عمل باثنين منها معاً يكون قد عمل بوجهين منها، ويكون قد درج في طريق صحيح إلى الله سبحانه.

فالحقيقة هنا لها ثلاثة أوجه، ويتوقف كمال الإنسان على تمثل هذه الأوجه الثلاثة. وأعتقد أن طريق العظماء هو هذا الطريق. ولهذا فعلى المرشحين لتحمّل أعباء دعوة الأنبياء عليهم السلام أن يسلكوا الطريق نفسه. أما أعمال الآخرين وأطوارهم فما هي إلاّ حوادث ومغامرات، وعليه أن يستعيذ بالله من الانحراف إلى مثل هذه المخاطرات المجهولة العاقبة، فلا يعلم أين ومتى وفي سبيل من ستنتهي؟

وقد ذكرت أن عدم التصادم مع قوانين الفطرة، والسيرَ في طريق الإرشاد، والتبليغَ بفراسةٍ وعلى بصيرةٍ ومعرفةٍ بمن سيستخدمون له من الأمور المهمة في الإرشاد.

وأفضل مثال لنا في هذا هو الرسول الكريم ﷺ؛ فالخصائص التي تدل على نبوته لها علاقة بموضوعنا، وهو استخدام كل إنسان في عمل يوافق استعداده. وهذه علامة على فراسته وفطنته في معرفة الأشخاص. فأيّما شخص وظّفه في أمر من الأمور لم يتراجع عنه قط. فهذه الإصابة أو الصواب طوال حياته، شاهد عدل مهم على نبوته.

فمثلاً استعمل حسّان بن ثابت ﷺ لمجابهة الكفار.[1] فكان كل بيت من أبيات قصائد حسّان كالسهم المسموم يصيب الصميم لدى الأعداء. بينما لو استعمل حسّان في ساحة الحرب وأعطى له القيادة فالفوز الذي كان يحرزه هذا الصحابي الجليل ربما كان يتحول إلى هزيمة لدى مقارعة السيوف.

فالذين أرسلهم الرسول الكريم للإرشاد كمصعب بن عمير ومعاذ بن جبل وعلى بن أبي طالب وأمثالهم ﷺ كانوا يوفقون توفيقاً يحير العقول في كل مكان حلّوا فيه للإرشاد. فلو كان هذا الأمر يُسلّم لخالد بن الوليد رضى الله عنه ربما كان لا يوفَّق مثلَهم. لأنه خُلق ليقذف الهلع والخوف حتى في قلوب الأُسود في ميدان الحرب، فاستخدمه الرسول ﷺ في مثل هذه الميادين. إن أهم خاصية من خصائص المرشد استخدامه الأفراد وفق قابلياتهم. وهذا مرتبط بمعرفة فطرة الإنسان عن قرب. فالذين يتعرفون على نواحي الضعف والقوة في الإنسان ثم لا يتصرفون وفق ذلك، فإن نجاحهم موضع نقاش.

ومن جهة أخرى فإنه لا يمكن الحدّ من الإسراف في الرجال ما لم يستعمل كل شخص في موضعه. فالمرشد هو الإنسان القادر على تلافي هذا الأمر. فهو بعمله وفق قوانين الفطرة يتمكن من أن يحل أعضل الأعمال ويبلغ في إتمامها بسرعة تفوق قوته.

---

(١) انظر: مسلم، فضائل الصحابة ١٥١- ١٥٦.